عمر سيفينتشجول

Telegram:@mbooks90

شيراز والسلطان

ترجمة: مريم محمود إسماعيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

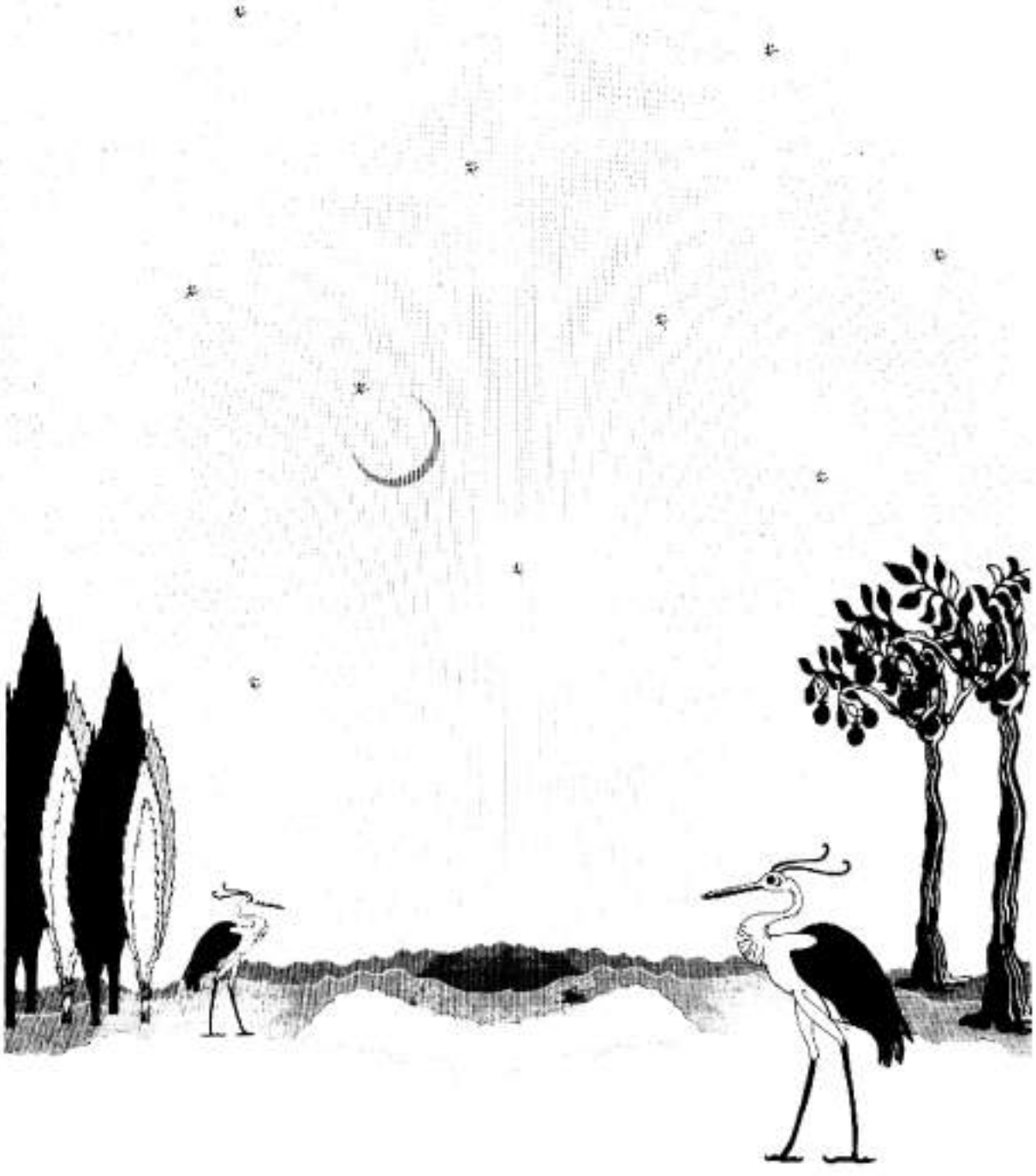

ستكون هناك صحوةٌ وقيامةٌ عظيمتان.

بعد مغادرتي لأرض الفُرس والقدوم إلى الأناضول، خضتُ العديد من المغامرات الغريبة والعجيبة. أنوي التحدُّث عن أهمها وأكثرها فضولًا.

Telegram:@mbooks90

عندما أتيتُ إلى هذا البلد، كان السلطان السلجوقي هو "كيخسرو الثالث". كنتُ أرغبُ في مقابلته وشرح فكرة أستاذي لـ"مدرسة الإبداع"، لكن ذلك لم يكن سهلًا على الإطلاق.

وبعد بحثٍ طويلٍ، وجدتُ أحد خريجي المدرسة النظامية في بغداد وطلبتُ منه المساعدة. فلقد كان رجلًا رفيع الشأن لدى الدولة.

هذا الشخص - واسمه عبد الله - تذكَّر أستاذي. وقال إنَّه سيبذل قُصارى جهده ويفي بوعده.

وبوساطته حضرتُ أمام السلطان. حيث شرحتُ فكرة أستاذي "سعدي الشيرازي" لـ "مدرسة الإبداع".

أحبَّ السلطان هذه الفكرة كثيرًا وأمر وزيره بتأسيسها. لكن لسوء الحظ، لم يتم تنفيذ هذه التعليمات. لقد كانت هناك بعض الأسباب لذلك.

كانت البلاد في حالة اضطراب. والفتنة والفساد كانا لا ينقطعان. و"الباطنية" كانوا يكيدون المكايد خلف الستار. فهؤلاء الشياطين ذوو المظهر البشري، الذين قتلوا الكثير من الأشخاص ذوي المكانة، لم يكونوا جالسين مكتوفي الأيدي هنا أيضًا.

كما استمرت الهجمات الصليبية. فقد كان هناك قس فرنسي يُدعى "بيير" يُشجِّع شعوب أوروبا على قتال المسلمين عند عودته من القدس. وكان هذا القس يقول للمسيحيين أينما ذهب: "من يقتل مسلمًا يدخل الجنة".

بهذه التحريضات وما شابهها، بدأت الهجمات الصليبية ولم تنقطع لوقتٍ طويلٍ. كما أدت هذه الهجمات إلى الصراع بين السلاجقة؛ فضعفت الدولة. وبدأ النزاع على العرش.

من ناحيةٍ أخرى، قام المغول، الذين ارتكبوا مذابح مهولة، بالهجوم فلم يتركوا حجرًا على حجر ولا رأسًا على كتف؛ مما تسبَّب في إضعاف الحُكم السلجوقي بشكلٍ أكبر.

وعندما رأيتُ هذه الأوضاع الحزينة وفقدتُ الأمل في القصر، التفتُّ إلى الناس، فقضيتُ معظم حياتي الفانية ألقي محاضرات في مدارس دينية مختلفة، وأروي للناس قصص معلمي ذات العبرة، وأشارك في الجهاد.

بمرور الوقت، ضعفت دولة السلاجقة ولفظت أنفاسها الأخيرة. إنَّ هذه الدولة المهيبة التي أسدَتْ خدمات عظيمة لدين الإسلام، فسدَت مثل أشجار الصَّنار ذات القرون وانقلب حالها؛ مما ملأ قلبي بالحزن وعيوني بالدموع.

لكنني لم أفقد الأمل تمامًا. فقد كانت الولايات، التي أُقيمت سابقًا في الأماكن التي اعتبرها سلاطين السلاجقة مناسبة، تُبشِّر بالخير. وكان "عثمان غازي" هو الشخص الذي لفت انتباهي أكثر من غيره بين الأمراء.

لقد أسس ولاية صغيرة مُقارنةً بالآخرين، لكن كان لدي شعور قوي بأنَّه سيفعل أشياء عظيمة. كنتُ أتلقى باستمرار معلومات من المسافرين؛ فعرفتُ الكثير عنه.

كان "عثمان غازي" وأصدقاؤه من سكان المرتفعات الأصليين. قد عاشوا حياةً فطريةً خاليةً من قذارة وصدأ وفساد حياة المدينة المُقزِّزة والمُعقَّدة.

كنتُ أصلي كل ليلة لكي تنمو هذه الولاية وتزدهر. وعندما سمعتُ خبر الفتح، زاد أملي وسروري. وكنتُ أبحث عن فرصةٍ لإيجاد طريقة للانضمام إليهم.

وأخيرًا، فُتحت "بورصة" من قِبَلِ "أورخان غازي" وجنوده. وبمُجرَّد أن سمعتُ هذه البشارة العظيمة، قلتُ إنَّ الوقت قد حان وهاجرتُ إلى هناك. أردتُ أن ألتقي السلطان في أقربِ وقتٍ ممكن وأتحدَّث عن مدرسة الإبداع، فكرة أستاذي وحُلم حياتي.

لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

لم يعرفني أحد في "بورصة" وضواحيها. حتى أنني مكثت ضيفًا في حجرةِ مسجدٍ صغيرٍ والتقيتُ بإمام المسجد العجوز وأصبحنا صديقين. كان رجلًا ودودًا ومخلصًا. فحدثته عن مشكلتي.

بعد الاستماع إليّ بعناية، قال: "أولًا وقبل كل شيء، تحدّث إلى علاء الدين بك. واشرح له نيتك بشكلٍ جيد. لقد تلقّى العلم والمعرفة من جده "إده بالي". وهو رجلٌ صاحب فراسةٍ وبصيرةٍ. سيفهمك ويساعدك."

"من هذا الشخص؟"

"إنّه أخ سلطاننا ووزيره ومستشاره. وهو أهل علم وحكمة. ليس له أي مطامع دنيوية. وبالرغم من وجود كل أنواع الفرص، إلا أنّه فَضّلَ أن يعيش حياة الزهد."

"ألم يكن يريد أن يكون السلطان؟"

"لا، أبدًا! لقد أراد عثمان غازي تقسيم السلطنة بين ولديه تفاديًا للنزاع. ووافق أورخان غازي أيضًا على ذلك. أما علاء الدين بك لم يقبل."

"لماذا؟"

"لقد قال لوالده: 'أريد أن أنشغل بالعلم والإرشاد. لأنه يجب شرح الإسلام جيدًا للناس الذين يعيشون في الأراضي المفتوحة. وأنا سأهيء الفرص للأشخاص المؤهلين للقيام بهذا الواجب.'"

"إنّها لتضحية كبيرة وخطوة حكيمة. فبسبب صراع الأخوة على العرش أبيدت العديد من الممالك .. أين أستطيع إيجاده؟"

"خارج مدينة بورصة، إنّه يعيش في مكان يُدعَى يني شهير. بابها مفتوح للعلماء. وأنا متأكدٌ من أنّه سيرحب بك أيضًا. أرسل له سلامي. فقد التقينا في تَكيّة إده بالي. وهناك احتمالية كبيرة أن يتذكّرني."

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إذا نما الجسد ولم تنمو الروح؛ فسيظل مستقبل ذلك الجسد مظلماً.

ذهبتُ إلى المكان الذي وصفه الإمام وقدّمتُ نفسي. فرحب بي علاء الدين بك وأحسن استقبالي. كان شخصًا مُشرق الوجه، رحيم، حليم، ونقي. أخبرته عن فكرة أستاذي: "مدرسة الإبداع". لقد سمع عن اسم أستاذي. فقال في حقه كلماتٍ لطيفة. ثم قال: "حسنًا يا مصعب أفندي سأوصلك بأخي. نحن بحاجةٍ إلى رجالٍ مثلك."

كتَبَ خطابًا مُوجّهًا إلى شقيقه أورخان غازي وسلّمها لي.

ودّعَني عند بوابة الحديقة بتواضعٍ غريبٍ يتصف به الأشخاص ذوو الروح السامية. وفارقته وأنا في غاية السعادة.

أخذتُ الرسالةَ المختومة وسلّمتها لقائد حرس القصر. وعرضوها على مقام السلطنة.

قرأها السلطان أورخان غازي وقال: "أخبره أن يأتي". فأخذني المُعاون إلى غرفة العرش.

حيث أُتيحت لي الفرصة لرؤيته عن قُرب. كان شخصًا طويل القامة، جميل الوجه، ذا بشرة بيضاء تميل إلى الوردي، عريض المنكبين، وذو هيبة ووقار.

عرّفتُ نفسي وشرحتُ سبب زيارتي. وقلتُ إنّ هدفي هو إنشاء "مدرسة الإبداع".

قلتُ: "إنّ هذه المدرسة هي في الأساس فكرة أستاذي "سعدي الشيرازي". لقد أرسلني إلى هنا من أجل هذا."

فقال سائلًا: "أي نوع من المدارس هذه؟"

قلتُ: "بالرغم من أن اسمها مدرسة، إلا أنّ هذا المكان سيكون مدرسة وزاوية وتكنة في الوقت نفسه. وسيتم اختيار الطلاب من بين المراهقين الأذكياء والشجعان وذوي السجية والأخلاق الحميدة. سوف يدرسون العلم والدين معًا. إلى جانب ذلك، سوف يتعلمون القتال."

"من أجل ماذا سيتعلمون القتال؟"

"الدولة بحاجة إلى رجال استخبارات موثوق بهم. فهذه المهمة خطيرة. وإذا كان ضباطك يعرفون كيفية القتال، فإنّهم سوف يحمون أنفسهم من الهجمات من ناحيةٍ ويُشاركون في الغزوات عند الضرورة من ناحيةٍ أخرى."

"نعم، إنّها نقطة مهمة."

"سيعيش هؤلاء الطلاب حياةً نقيةً بفضل العلم الذي يتلقونه من العلماء والشيوخ، وسيصبحون رمزًا للأخلاق ومصباحًا للإبداع بين الناس. إنّ دولتنا التي نمت بجهود والدكم المرحوم عثمان غازي وسيادتكم، سلطاني الموقّر، بحاجةٍ إلى رجال أُمناء ومخلصين ونابغين."

كما تحدّثتُ عن أمور أخرى مُماثلة. لقد قدّمتُ تصورًا عامًا للمدرسة. وبعد الاستماع إليّ بعنايةٍ، قال:

"مصعب أفندي، هذا الأمر بَدَا لي مُهمًا للغاية. أحتاج إلى التفكير مليًا قبل اتخاذ القرار. فكن ضيفنا لبعض الوقت، استرح وانتظر خبرًا مني."

قلت: "أمرك، سلطاني"

أصدر تعليمات لمعاونه. فجعلني المعاون أقيم في منزل مُخصص للضيوف بالقُرب من القصر. كما عيّن لي خادمًا.

أقمتُ هنا مدة ليست بالقليلة. لقد جاءت الراحة بفائدة لجسدي المُنهك. كنتُ ممتنًا لسلطاني الرحيم، الذي تكرّم عليّ بهذه الفرصة، فأخذتُ أتضرع إلى الله.

تتحد القطرات فتصبح أنهارًا، وتتحد الأنهار فتصبح بحرًا.

تولى "أورخان غازي" العرش في سن السادسة والأربعين. كان يعرف شؤون الدولة لأنه كان قائد الجيش في عهد والده "عثمان غازي". وكانت لديه جميع الصفات التي يجب أن يتمتع بها السلطان.

كان يدعوني للجلوس معه في أوقات فراغه، كان يتعامل بودٍّ للغاية، وطلب مني أن أحكي عما تلقنته من أستاذي. وأثناء إحدى محادثاتنا، تحدثت أيضًا عن أمل وبشرى أستاذي للمستقبل.

أنهيتُ كلامي قائلًا: "كان يؤمن بأن توحُّد العالم الإسلامي ونهضته سيكون بأيديكم."

كان سعيدًا جدًا بهذه البشارة المستقبلية. ثم سأل قائلًا: "وهل أنت تؤمن بهذا أيضًا؟"

قلتُ: "نعم يا سلطاني، أنا أؤمن من كل قلبي. فأستاذي دائمًا على صواب؛ إذا أردت فلنسميها فَرَاسة وإذا أردت فلنسميها كرَامة. كما أن نهر التاريخ يتدفق في هذا الاتجاه."

"إن شاء الله سيحدث هذا يا مصعب أفندي. كان والدي المرحوم، عثمان غازي، حزينًا جدًا على حال الأمة الإسلامية المُشتت. لقد أشعل الشعلة وأصبح أمل الأمة. كان رجلًا صاحب حمية وحماس. عمل بإخلاص، وواجه جميع أنواع المخاطر. وأنا سأسير على المنوال نفسه. هذا ما وعدت به والدي.". وبعد أن قال هذا تحدّث عن آخر لقاء له مع والده.

تقدّم عثمان غازي في السن وأصابه المرض. فترك شؤون الدولة لابنه وذهب للراحة. كان دائمًا مشغولًا بالعبادة.

وفي اليوم الذي فُتحت فيه بورصة، جاء رسول وأخبر أورخان غازي أن والده على فراش الموت وأنه يعيش لحظاته الأخيرة.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

ترك أورخان غازي احتفالات الفتح وذهب إلى جوار والده. أخبره والده بوصيته وقَدَّمَ له النصح.

فقال: "يا بني، لقد جاء أجلي. أنا ذاهبٌ إلى دار الخلود. كما ترى، لا يمكنني أخذ أي شيء معي سوى إيماني وعبادتي. لقد عملت في سبيل الله وفي سبيل الإسلام إلى يومنا هذا. اعتاد جدك "إده بالي" أن يغرس في هذه المبادئ طوال الوقت. فحارب بالنية نفسها. وابحث عن طرق لنشر اسم الله في جميع أنحاء العالم. وعامل الناس بالمغفرة والرحمة والعدل."

بعد أن قَدَّمَ هذه النصيحة الغالية الوافية، أسلم روحه إلى الرحمن. كان أورخان غازي حزينًا جدًا أثناء حديثه عن هذا.

كلما تعرفتُ على سلطاني أكثر، كلما أحببته أكثر. وقَوِيَ أملي. بالإضافة إلى خصاله الأخرى، كان أيضًا استثنائيًا في التواضع. لقد شاهدتُ هذا بنفسي.

أنشأ العمارة الخيرية للفقراء ليأكلوا بها، وأنشأ مسجدًا واسعًا للناس ليعبدوا الله بمنتهى الراحة.

وأثناء افتتاح العمارة الخيرية، قَدَّمَ الطعامَ للفقراء بيديه. كما كان في المساء يُضيء بنفسه قناديل النور بالمسجد الذي بَناه.

وأبناؤه أيضًا "سليمان بك ومراد بك" كانا رمزين للأخلاق والأدب. وكان من الممكن رؤية أدب ولطف والدتهم المُوقَّرة "نيلوفر خاتون" في سلوكها ومواقفها.

أحيانًا كانوا يأتون إلى دار الضيافة ويطلبون مني أن أحكي لهم عن ذكرياتي، فكنتُ أفعل. ذات يوم أخبرتُهم عن الأمير الذي جاء لزيارة أستاذي في شيراز. فلم أستطع حبس دموعي أثناء الحديث عن صفاته.

تأثروا هم أيضًا بالموت المبكّر لشابٍ كان قادرًا على القيام بأشياء مهمة في المستقبل، ولربما قُتِلَ خفيةً على يد "الباطنية".

حاولوا مواساتي قائلين: "لا تحزن يا مصعب أفندي. إن شاء الله سنكمل العمل

الذي لم يكتمل بوفاة الأمير المرحوم، بفضل عون ربنا ومن ثم حكمة والدنا السلطان."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزهرت زهرة أمل جديدة بداخلي.

في إحدى الأيام بعد صلاة العصر، أرسل "أورخان غازي" مُعاونه ودعاني للحضور، فذهبتُ في الحال. بعد التحية، قلتُ: "تفضّل يا سلطاني، لقد أمرتني بالحضور."

رد السلام. وقام من عرشه وسار نحوي. ثم وضع يده بحنان على كتفي وقال:

"يا مصعب أفندي، إنني أستشير رفاقي الذين أثق في آرائهم قبل اتخاذ القرار في الأمور المهمة. لقد تحدّثتُ إلى أصدقائي المقرّبين: غوندوز ألب، وسالتوك ألب، وكوسا مهال، وأكتشا كوجا، وكونور ألب، وتورجوت ألب، وغازي عبد الرحمن بخصوص "مدرسة الإبداع" الخاصة بك. وأعجبوا جميعًا بهذه الفكرة. كما أوضح أخي علاء الدين في رسالته ضرورة وجود مثل هذه المدرسة. وكان هذا هو رأيي في الأساس. خلاصة القول، لقد قررتُ إنشاء المدرسة في أسرع وقتٍ ممكن. أنتَ على حق؛ الدولة بحاجةٍ إلى رجال أمناء ومخلصين ونابغين."

كنتُ سعيدًا جدًا بهذا الخبر لدرجة أنني نسيتُ أنني كنتُ في مقام السلطنة وعانقتُ سلطاني بحرارة. فبادلني العناق وهو يبتسم. لقد عانق بلطفٍ جسدي الضعيف المنكمش من أثر الشيخوخة.

عندما رأى دموع الفرح في عيني، مدّ منديله وقال: "يمكنك الاحتفاظ به. سوف يُساعدك على تذكري أثناء دعائك."

ثم أمر معاونه قائلًا: "مهما كانت رغبات مصعب أفندي ومطالبه يجب أن تُلبيها على الفور!"

قاموا بتخصيص بناء مناسب للمدرسة وِفقًا لوصفي لها. أصرَرتُ على أن يكون مكانًا بعيدًا عن الناس؛ فحدَثَ ما أردت.

كان هذا المكان ديرًا في السابق. ثم تمّ تركه. وهو يقع في مكانٍ شاهقٍ من الجبل، والمنطقة من حوله مهجورة وهادئة إلى حدّ بعيد.

كما قاموا بتعيين مدرسين ومعلمين من أهل العلم والمعرفة، أصحاب الرأي في

مجالهم. ووجدوا مجاهدين ذوي خبرة لتعليم الطلاب فنون القتال.

اختار هؤلاء الأشخاص حوالي مئة طالب بعد غَرْبَلَتِهم وفرزهم بدقة. وهكذا تم افتتاح "مدرسة الإبداع".

يتولى الأمير مراد بك إدارة المدرسة. ثم نرسل الطلاب الخريجين إلى الأمير سليمان بك.

أما "أورخان غازي" فكان يأتي لزيارة المدرسة كلما سنحت له الفرصة. كان راضيًا عن الوضع. حتى أنّه أمر بإنشاء مدارس مُشابهة في المدن الأخرى.

أنا أيضًا لديّ وظيفة هنا. فأنا أحاول تأمين استمرار المدرسة على النحو المناسب والمقصود.

ها أنا هنا منذ سبع سنوات. أحمدُ ربي ليل نهار، لأنّه رزقني هذه النعمة.

فأخيرًا فكرة أستاذي المُمتدة لأكثر من سبعين عامًا، أصبحت حقيقةً. أحيانًا أتألم وأقول: "ليت أستاذي كان حيًا ورأى المدرسة."

لقد وصلتُ إلى نهاية حياتي. ودَنَا القبر مني. لكنني لا أشعر بالخوف. لطالما كنتُ مؤمنًا أنّ الموت وسيلة للعبور من سجن الدنيا إلى بُستان الآخرة.

لكن قبل أن أُغادر هذه الدنيا الفانية إلى دار الخلود، لديّ عملٌ مُهمٌ يجب القيام به.

أريد أن أكتب القصص المليئة بالعبر لأستاذي، بلبل شيراز وسيد الورود، وأتركها كهدية لأهل المستقبل. وإنني أرى أنّ هذا العمل سيكون أثمن ثمار شجرة حياتي.

إنّ الله الذي يخلق أزهارًا وأوراقًا وثمارًا في الربيع من أشجار الشتاء شديدة الجفاف، قادرٌ على خلق الكثير من الجمال من جسدي المُتداعي بسبب الجفاف ومن ذاكرتي الطاعنة في السن.

أتمنى أن يرزقني ربي المزيد من العمر حتّى أتمكن من تأدية هذا العمل المهم!

البستان لا يخلو من البلبل.

كانت ليلة مظلمة. وكنتُ وحدي في غرفتي. الشيء الوحيد الذي كان يتحرّك حولي هو شعلة القنديل المشتعل. كنتُ سارحًا في مشاهدة انعكاس هذه الحركة على الجدار المقابل.

كنتُ أحاول كتابة ذكرياتي مع أستاذي سعدي، لكنني لم أستطع الكتابة؛ حيث بَدَتْ الوجوه والأحداث وكأنّها وراء ستار من الضباب.

شعرتُ بالعجز الشديد وقِلّةِ الحيلة. عندئذٍ، ناديتُ على أستاذي الذي في القبر منذ سنوات.

"يا سعدي! يا أستاذي العزيز! لقد كنتَ مرآتي. كنتُ أنظر إليك فأرى نفسي. وكنتُ أنصتُ إليك فأعرف نفسي. أما الآن فلستَ معي. فما عدتُ أعرف نفسي. واسودت السماء. وانطفأت النجوم. لقد تعبتُ من انتظارك. طعنتْ في السن. وهشت عظامي. وضعفتْ ذاكرتي. وجف جسدي. واشتعل رأسي شيبًا. لقد سمعت منك العديد من القصص الحكيمة والمغامرات ذات العبرة. كتبتُ بعضًا منها من قبل. لكنني لا أستطيع تذكُّر البقية. إنّ البُستان لا يخلو من البلبل. أستاذي! ارحم هذا الطالب العاجز الذي أوشك على الموت وتعال الآن! تحدّث وقُل واحكي حلو الكلام كما في أيامنا في شيراز. ها أنا ذا أمسكُ بالدواة. وعلبة المِداد موجودة على الطاولة. والصفحات تنتظر أن تمتلئ. كل شيٍ على ما يرام لكنك لست موجودًا. وأنا لا أستطيع الكتابة بدونك."

بمُجرّد أن انتهيت من الكلام، ظهر ظلٌ أبيض على الحائط المقابل. فإذا بصورة أستاذي قد انعكست وظهرت عيانًا بيانًا.

أثار هذا الحدث العجيب في نفسي شعورًا بالدهشة أكثر من الخوف.

كان المكان أشبه بحديقة شيراز.

وكانت هناك ابتسامة خفيفة على وجهه النوراني.

وكانت شفتاه تتحركان.

لم أستطع سماع صوته، لكنني كنت أفهم ما يقول.

كان حديثه هادئًا، لكنه لم يكن صامتًا.

قال: "يا مصعب، اكتب!"

فقلت: "أمرك يا أستاذي!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحداث الحب الصغيرة هي التي تملأ المخزن الضخم.

يا مصعب، يا ولدي الوفي! إنّ فكرتي، التي امتدت لما يقرب من ثمانين عامًا، أصبحت حقيقةً بفضل عزيمتك وجهدك ووجودي في هذه المدرسة، بأي صورة كانت، ملأ روحي بالطمأنينة.

سوف أخبرك بأهم الأحداث في حياتي وأكثرها مَغْزَى، ما دمتَ تريد كتابتها. أنت على حق، لا ينبغي أبدًا أن تبقى سرية، يجب أن تكون معروفة للأجيال المُقبلة.

لقد وجدتُ أنّه من المناسب أن أبدأ بالحديث عن بعض ذكريات طفولتي. فكما هو معلوم أنّه عند إنشاء مبنى يتم وضع الأساس أولًا.

لقد صرتُ يتيمًا في سنٍّ مُبكرةٍ وعشتُ دائمًا في حنين إلى والدي.

لا أستطيع أن أنسى أبدًا ما كنا نفعله مع والدي. خصوصًا أنّ لدي ذكرى لا تزال باقيةً في ذاكرتي، بالرغم من مرور سنوات عديدة.

عندما كنتُ طفلًا صغيرًا، كنتُ أتوق للعبادة وأحب أن أتصرف كمتصوفٍ. وكون والدي شخصًا صالحًا أثّرَ عليّ أيضًا.

استيقظتُ ذات ليلة وصليتُ قيام الليل مع والدي. كنتُ أجلس على سجادة الصلاة والذِّكر على لساني والمسبحة في يدي.

كانت والدتي وأختي الكبرى في الطابق العلوي، والضيوف أقاربنا في الغرفة المجاورة، وكانوا جميعًا نائمين.

فقلت لوالدي: "ماذا سيحدث لو قام أحد هؤلاء وصلى ركعتين! انظر، إنّهم ينامون مثل الموتى."

عندئذٍ قال والدي: "يا بني العزيز، ليتك نمتَ أيضًا ولم تغتابهم!"

كان لهذا التحذير أثرٌ عميقٌ عليّ. بعدها، طوال حياتي كلما كانت لديّ رغبة في الغيبة، كنتُ أتذكّر هذه الحادثة وأعض لساني.

إنّ الطفل يجد صعوبةً في فهم المعاني المجرّدة ويُصيبه الملل من المحادثات التي على هيئة نصيحة. والدي، الذي كان يعرف هذا جيدًا، كان يُسرب ما يريد قوله في قصة ويقولها على هذا النحو.

إحدى القصص العالقة بذاكرتي كانت عن رجلٍ مُنافقٍ، ذي وجهين، ومُرائي.

تمت دعوة هذا الرجل إلى منزلِ رجلٍ ثري. وكانوا يجلسون على مائدة الطعام.

فأكل أقل من المعتاد حتى يظنوا به الظن الحَسَن. وعندما قام للصلاة كانت صلاته أكثر من المعتاد.

وبمُجرّد أن عاد إلى المنزل، طلب من زوجته أن تُجهّز مائدةَ الطعام. وكان لديه ولد صغير السن لكنه كبير العقل.

فسأل قائلًا: "أبي، لقد ذهبتَ إلى حفل رجلٍ ثري، ألم تأكل شيئًا؟"

حاول الرجل تجاوز السؤال فقال: "بسبب نظراتهم لم أستطع أن آكل ما يُشبعني."

عندها قال الطفل الذكي: "إذن يا أبتاه فلتقم لأداء صلاتك، لأنّك لم تصلِ صلاة تفي بالغرض."

بعد أن انتهي والدي من سرد القصة، قال: "إنّ العمل بدون إخلاص مثل النقود المزوّرة. فماذا يستطيع المرء أن يشتري بالمال المزوّر وقت الحاجة؟"

الذكرى الثانية التي سأرويها لك مُتعلّقة بأمي. إنّها حادثة حزينة. كلما خطرت على بالي؛ أشعر بالخجل والحزن وأذرف الدموع.

بعد أن ذهب والدي إلى دار البقاء، كنتُ أعيش وحيدًا مع والدتي. لقد ربّتني بالعديد من التضحيات. من يدري ما هي الصعوبات التي واجهتها.

مر الزمان وتعاقبت السنوات. وتقدّمت والدتي المسكينة في السن كثيرًا. وأنا أيضًا كبرتُ وأصبحتُ مُراهقًا.

كنتُ طائشًا وأتصرف بتهور. وذات يوم صرختُ في والدتي العجوز بسبب أمرٍ

تافه.

لم تكن تتوقع مني مثل هذه المعاملة. فُجِعَت وانزوت في زاويةٍ وأخذت تبكي بصمت. ثم نهضت وغادرت.

كنت قلقًا وأتساءل إلى أين ذَهَبَت. ثم عادت بعد ذلك بقليل. وكانت تحمل في يدها مهدًا قديمًا. وضعته أمامي.

قالت: "يا صغيري! لقد كنت في يومٍ من الأيام رضيعًا عاجزًا، ضعيفًا، ومسكينًا مستلقيًا في هذا المهد. ولم أكن أذوق طعم النوم طوال الليالي، كنت أقوم بهزك وإسكاتك وإرضاعك. لابُدَّ أنَّك نسيت كل هذا لأنَّك تُحطِّم قلب تلك الأم العجوز وتُؤذي روحها."

عانقت كفيها، وجلست عند قدميها، واعتذرت مراتٍ عِدَّة. قلت: "أرجوكِ اغفري لي يا أمي. أقسم أني سأكون طوعك من الآن فصاعدًا. مهما كان الأمر الذي ترغبين فيه؛ فهو على رأسي."

هكذا انتهى الحادث، لكن جرح الندم في قلبي لم يلتئم أبدًا، فكلما تذكرته ينزف مرةً أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلُّ إناءٍ بما فيه ينضح.

اضطررتُ للسفر إلى البلاد البعيدة لمتابعة دراستي. كانت المدرسة النظامية هي أنسب مكان لهذا.

كانت المدرسة النظامية أكثر مراكز العلوم تقدمًا في ذلك الوقت. إذ إعتاد كبار العلماء على التدريس هنا. كما ألقى العالم الشهير الإمام الغزالي محاضرات في هذه المدرسة ذات مرة.

تمَّ بناء أول هذه المدارس في عهد الحاكم السلجوقي "ألب أرسلان"، كما أنشأ ابنه ملك شاه مدارس مُشابهة في أماكن أخرى.

صاحب هذه الفكرة كان الوزير الشهير "نظام الملك" الذي كان بحرًا من العلم والحكمة. كما يأتي اسم "نظامية" من اسمه.

المدرسة النظامية في بغداد، حيث بدأت تعليمي، كانت عبارةً عن كلية. قد تمَّ النظر في جميع احتياجات المعلمين والطلاب وتم إنشاء البناء وِفقًا لذلك.

من ناحيةٍ كنتُ أعمل على زيادة علمي في المدرسة، ومن ناحيةٍ أخرى كنتُ أعمل على تحسين نفسي معنويًا.

لقد كان شيخي هو حضرة الشيخ سهروردي. أحببته كثيرًا وكنت أزوره يوميًا. وكان دائمًا يستقبلني بوجهٍ مُبتسم.

كان لديه مساعد عاقل وحكيم. كان اسمه "مرسل". كان يقوم بواجباته المُسندة إليه على أكمل وجه، ونادرًا ما يتحدث.

ذات يوم أخذني إلى الحديقة. كان يريد التحدُّث معي. وجدنا مكانًا مُنعزلًا وجلسنا. ثم قال بصوتٍ عذب وبلغةٍ لطيفة:

"يا سعدي، أنا أفهمك، أنت تحب شيخك كثيرًا، وتحاول الاستفادة منه. لهذا السبب تأتي لزيارته كل يوم. وهو لا يُبدي اعتراضًا لأنه شخص طيب."

"وما المانع في هذا؟"

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

"دعني أروي لك حديثًا، ثم فكّر فيه وقرّر بنفسك ما إذا كان هناك مانعًا أم لا."

"تفضّل."

"كان أبو هريرة، أحد كبار الصحابة، يأتي لزيارة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كل يوم. ذات يوم قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم): {يا أبا هريرة! قم بزيارتي يومًا بعد يوم لتزيد من الود}. هذا الحديث يعطينا معيارًا مُهمًا. وأنت شخص ذكيّ. بالطبع فهمت المغزى."

"نعم، فهمته جيدًا"

"انتظر، دعني أطرح سؤالًا.. بالرغم من أنّ الشمس جميلةٌ ومهمة ومفيدة، إلا أنّه لا أحد يشتاق إليها. هل تعرف لماذا؟"

"لماذا؟"

"لأنّها موجودة كل يوم. إذا كانت مثل المطر الذي يهطل في أوقات غير مُحدّدة بين الحين والآخر، لاشتاق إليها الناس وفرحوا بمجيئها."

شكرته على إخباري بخطئي المستمر دون أن يجرحني. واتبعت نصيحته وحدّدتُ زياراتي وِفقًا لذلك.

بالحديث عن شيخي، دعني أخبرك بذكرى قصيرة عنه.

كان لديّ جرح في مكان غير مرئي من جسدي. كلما سنحت الفرصة كان يسألني: "كيف حال جرحك؟". لم يسأل لمرةٍ واحدة "أين جرحك؟". كان يفعل هذا لعل الجرح في مكانٍ بجسدي، ذِكره مُحرج. هذا هو الأدب واللطف!

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

ان تبقى صامتًا خيرٌ لك من أن تُخبر احدًا بسرّك وتقول: "إياك أن تُخبر احدًا"

بعد إتمام دراستي، قررتُ أن أصبح رحّالًا وأسافر عبر البلاد وأطوّر من نفسي بهذه الطريقة. هذه الرغبة، التي كانت بذرةً في سنوات دراستي، نمت بمرور الوقت وأصبحت شَغَفًا سيطر على حياتي.

غادرتُ مسقط رأسي على ظهر بعير. وسلكتُ الطريق دون تحديد وِجْهَة واضحة لنفسي. كانت نيتي أن أذهب أينما تأخذني الأحداث.

أحيانًا أتجول وأتنقل وحدي وأحيانًا ألتحق بقافلة. لقد رأيتُ العديد من الأماكن. والتقيتُ بالعديد من الأشخاص.

أحيانًا أُقيم في "مواقد الآخي"، وأحيانًا أحِلُّ ضيفًا على خريجي المدرسة النظامية.

سافرتُ مرةً أخرى لأسابيع وكنتُ مُتعبًا جدًا. كنتُ في بلدةٍ قريبةٍ من نهر دجلة. حالفني الحظ وصادفتُ صديقًا قديمًا هناك.

كان اسمه "أيمن". وكان من طلاب المدرسة النظامية. بعد الوفاة المفاجئة لوالده، اضطر إلى ترك تعليمه في منتصف الطريق واتجه للتجارة. كان يُحب العلم ويحترم العلماء. كما كان مُولعًا بالفن والأدب والحكمة.

بعد أن نظر إليّ باهتمام وشفقة، قال: "يا أخي، إنني أراك مُتعبًا جدًا. يجب أن ترتاح. سأعرض عليك عرضًا. من فضلك لا ترفضه."

"أي عرض؟"

"لديّ منزل في حديقة على بُعد ساعة من هنا. مكان هادئ وساكن. يمر نهر دجلة أمامه. قد بنيته لقضاء أشهر الصيف هناك. لكنني لم أجد الفرصة للذهاب هذا العام. إنّه فارغ. فدعني أجَهّزه لك، ولتبق كما تريد، وترتاح."

فكّرتُ قليلًا. فلم يكن هناك سببٌ لرفضي عرض هذا الرجل السخي. قبلتُ العرض ومكثتُ في البيت الصيفي. إنّ الراحة جيدة لكلٍّ من روحي وجسدي.

لم أكن ألتقي بأحد. فقط كلما سنحت ليّ الفرصة كنتُ أذهب إلى ضفة النهر، أجلس تحت شجرة، وأنظر إلى المياه المتدفقة ساعات عِدّة، واستمع إلى موسيقى الطبيعة معرض الأعمال الإلهية.

لكن وحدتي لم تدم طويلًا. بطريقةٍ ما، عَرَفَ بعض الأشخاص الذين سمعوا اسمي أنني أعيش هناك. وأرادوا التعرُّف إليّ عن قُرب.

أرسلوا خبزًا وطلبوا الإذن لزيارتي. فمنعتني أخلاقي ولباقتي من الرفضِ، وقبلتُ.

ثمرة الجوز الفارغة تفضحها خِفّتها، والمرء يفضحه لسانه.

أولًا، جاء أيمن مع خادميه. أعدوا طاولة طعام جميلة. وبعدها بقليل حضر الآخرون.

كان ضيوفي أشخاصًا يعرفون بعضهم البعض. فسرعان ما اندمجوا في مُحادثةٍ عميقة. أما أنا كنتُ صامتًا وأستمع.

نظر إليّ أيمن وهو يبتسم وقال: "يا سعدي، لم تكن هكذا من قبل. إنّك صامتٌ تمامًا، ونادرًا ما تتحدث."

قلتُ: "هناك سبب. ذات ليلة أخذت أُفكّر في ماضيي حتى الصباح وقررتُ التحدُّث أقل."

"فيما كنتَ تفكر؟"

"رأيتُ أنني أمضيت جزءًا مُهمًا من حياتي أتحدّث. أحيانًا كنتُ أصيب القول، وأحيانًا كنتُ أخطئ. من يدري في قلبِ أي شخصٍ فتحتُ جروحًا. إنّ ألم الندم حطّم قلبي. ولسوء الحظ، الكلمة المنطوقة مثل السهم الخارج من القوس لا يمكن إرجاعها."

"إنّ الرجل ليُخطئ. وإنّ الذنب يُختص به البشر. لكن التوبة مُتاحة في كلّ وقت. وباب الاستغفار مفتوح دائمًا. مثلما أكل آدم، جدنا الأكبر، (عليه السلام) ثمرة الشجرة المُحرمة. ثم أناب واستغفر. إنّك تعرف هذه القصص أكثر مني. فكّر في هذا الأمر مرةً أخرى. فأنت مثل البلبل الذي يشدو ألحانًا حلوة في موسم الورود. وصمتُ البلبل يُصيب الورود بالحزن."

أخذ صديقي يقول العديد من الكلمات الجميلة وذات المغزى المشابهة لهذه الكلمات. وقام بصف جُملٍ مثل اللآلئ واحدة تلو الأخرى. فقدّمتُ عذرًا آخر هذه المرة:

"إنّ الكلمةَ الواحدة تتضمن المعنى الحسن والمعنى القبيح. وعين العدو لا ترى

الحسن بل ترى القبيح دائمًا. هذا هو أحد الأسباب التي تجبرني على التزام الصمت."

فعقّبَ على هذا قائلًا: "يا أخي، لِتَدم أعين العدو ولا ترى الحسن! ولِتَدم رؤية القبيح للأعين القبيحة. فحتى الفضيلة تبدو في الأعين الفاسدة عيبًا وعارًا. سعدي يضحك من أجلنا. ما خصنا إن رأى الأشرار أنّها شوكة! إذا كانت الشمس التي تُنير العالم تبدو قبيحةً في أعين الخفاش، فهذا القبح من الخفاش. ولا تُبدي اهتمامًا بطبيعة الخفاش. تكلّم واشرح وثَقّف الناس."

أعجبتني كلمات صديقي. وكان الضيوف يستمعون إلى المحادثة التي دارت بيننا.

فقررتُ أن أتحدّث، وحرّرتُ لساني الذي ظل في الأسر فترة طويلة. في البداية حكيتُ قصة تاجر.

هذا التاجر، الذي خسر خسارةً كبيرةً في تجارته، دعا ابنه إليه.

قال: "إياك أن تُخبر أحدًا عن هذه الخسارة!"

قال الطفل: "حسنًا يا أبي. لكن يجب أن تخبرني أيضًا بالحكمة من وراء هذا."

"لقد حلّت بنا مصيبة. إذا أخبرت الآخرين فإنّ المصيبة ستتضاعف. المصيبة الأولى هي نقصان رأس المال. والمصيبة الأخرى هي شماتة كل من يعرف الخبر."

"يا للعجب!"

"لا تُظهر حزنك للآخرين إطلاقًا، ولاسيما خصومك. سيقولون 'لا حول ولا قوة إلا بالله' في وجهك، لكن من داخلهم يفرحون."

لا شيء خيرٌ للجاهل من الصمت، لكنه إن أدرك هذا لما أصبح جاهلًا.

كان مجلس الحديث مليء بالبهجة. شارك رجل عجوز في الحديث وقَصَّ علينا إحدى ذكرياته.

كان لديّ صديق صاحب معرفة وفضيلة. كان يحضر مجالس العلم، فيستمع للعلماء ولا يلفظ بكلمةٍ واحدة.

ذات يوم سألته: "أنت أيضًا صاحب علم، لماذا لا تتحدّث؟"

قال: "إنني أخشى الحديث. لأنني سأكون مُحرجًا إذا قلتُ شيئًا عن مسألةٍ ما ثم طرحوا عليّ أسئلة ولم أستطع الإجابة. كلما رغبتُ في التّحدُّث، أتذكر قصةَ درويش وأمسك لساني."

"أي قصة؟"

"كان هذا الدرويش يخرج أمام بابه ويطرق المسامير تحت حذائه. عندما رأى الحارس هذا، أمسك بخناق الدرويش. وقال: 'ما دمت تعرف كيفية دق المسامير، تعال إلى حدوة حصاني'."

لقد نالت القصة إعجابي.

فقلتُ: "إذا لم تُبدِ رأيك في موضوع ما فلن يلتفت أحد لك، لكن بمُجرَّد أن تفعل سيكون عليك تقديم الدليل. هذه القصة ذَكَّرَتني بحادثةٍ شاهدتها في شبابي."

قالوا: "ما هي هذه الحادثة؟ إحكِ."

"كان هناك عالم جليل يتجادل مع رجلٍ كافرٍ. قدّم أدِلّةً وقال كلمات منطقية لكنه لم يستطع إقناع الرجل. وفي النهاية توقّف عن الجدال وغادر. ركضتُ خلفه وسألته: 'يا سيدي، أنت صاحب علمٍ وافرٍ. لكنك لم تستطع التّغلُّب على الكافر. لماذا؟'".

رد عليّ قائلًا: "أدِلّتي عبارة عن آياتٍ وأحاديث. أما مُجادلي فلا يؤمن بها، ولا يعيرها اهتمامًا؛ حتى إنّه لا يريد سماعها. هل كان يجب عليّ إطالة المُجادلة وسماع سبابه؟ إنّ الصمت أفضل جواب يمكن أن تعطيه لهذا الشخص. فكما قال الله في

كتابه العزيز {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) } **(سورة البقرة)** . كان هذا الرجل من تلك الطائفة. فماذا أفعل بشخص مختوم القلب؟"

'لاحظت أنّ الرجل مسرور من حاله. ماذا عن هذا؟'

"بعض الناس عميان الروح. إذا فتحت البصيرة أعينهم؛ فإنّهم يتعرفون على أنفسهم، ويرون وجوههم الحقيقية، فتصيبهم التعاسة. لهذا السبب، يستمرون في العيش في غفلةٍ. اسمح لي أن أروي لك قصةً بخصوص هذا الموضوع، استمع إليها وفكّر فيها. كان هناك تاجرًا لديه ابنة قبيحة جدًا. لا أحد يريد الزواج منها. فزوّجها التاجر لرجلٍ أعمى. ثم جاء طبيبٌ ماهرٌ من أراض بعيدة. كان يُعالج المكفوفين الذين تقدّموا له للعلاج ويرد إليهم أبصارهم. ذات يوم سألوا التاجر: 'لماذا لا تأخذ العريس إلى الطبيب؟ ربما يتمكن من علاجه، ويرد إليه بصره'. قال: 'لديّ سبب مهم.'. سألوه 'ما هو؟'. قال: ' أخشى أن يُطلّق ابنتي إنْ أبصر'. هذا هو وضع الشخص الذي لا يريد رؤية الحق والحقيقة. يعيش حياته معصوب العينين ولا يريد أنْ يبصر."

ثم شارك في الحديث شخص يُدعَى منصور، كان دائمًا يشارك في حديثنا، وروى قصةً مليئةً بالعبر.

كان هناك شخصٌ أحمق يتشاجر مع عالم، وكان ينزل عليه بالسباب وبالضرب في الوقت نفسه. عندما شاهد رجلٌ حكيمٌ هذا قال: "لو كان هذا الرجل عالِمًا حقيقيًا، لما عانَدَ وجادَل رجلًا جاهلًا. ولما وصل النزاع إلى هذه النقطة."

قلتُ: "الرجل الحكيم مُحق. لا ينبغي لرجل حكيم أن يُجادل الحمقى. إذا خرج أحمق وهَمَّ بالسباب، فليقل مثل أحد المتصوفة القُدامى: 'في الواقع أنا أسوأ مما تقول لكنك لا تعرف ذلك.'"

إنّ شخصين ناضجين يستطيعان معًا الاحتفاظ بشَعرةٍ دون نَتفِها. وإذا كان الشخصان أحدهما متمرد والآخر حليم وقويم فإنّ الشّعرة لن تُنتَف أيضًا، لأنّ الشخص الحليم القويم سيقود الشخص الآخر. أما إذا كان كلاهما جاهلًا ومتمردًا،

فإن كان بينهما زَنْجِيرًا سوف ينكسر"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اخفض صوتك أثناء التحدث إلى صديقك بجوار الحائط؛ فربما تكون هناك أذن خلفه.

ثم شارك رجل من تبريز في الحديث، وبدأ يتحدث عن سمات خطيب شهير اسمه صهبان:

"كان صهبان ماهرًا جدًا في فن التحدث. إذا تكلم في مجلس مدة عام، فلن يُكرِّر الكلام، وإذا احتاج إلى تكرار المعنى، سيقوله بألفاظ أخرى. في الواقع، مهما كانت الكلمة جيدة، فليس من الجيّد تكرارها. مثلما تُؤكل الحلوى أيضًا مرةً واحدةً أثناء الطعام."

ثم انتقل الحديث إلى صديقي أيمن. "لقد سمعتُ كلماتٍ جميلةٍ جدًا عن هذا الأمر من شخص حكيم. قال ذات مرة: 'لا أحد يعترف بجهله، باستثناء الشخص الذي يقطع حديث شخص آخر ليتحدث هو. فصاحب العلم والأدب لا يتحدث إلا إذا رأى الآخرين صامتين.'"

عندما صمت أيمن، رويث لهم قصةً عن ضرورة عدم قول كل الكلام في كل مكان أو لكل شخص.

كان السلطان "محمود الغزنوي" يثق ثقةً كبيرةً بأحد رجال الدولة المهمين. أهم ما كان يُميّز هذا الشخص، المعروف باسم "حسن ميمندي"، أنّه كان يعرف كيف يحفظ الأسرار وأين وماذا يقول.

ذات يوم، جاء بعض أعيان الدولة للزيارة. وأرادوا أن يسألوه عن مسألةٍ ما.

سألوه: "ماذا قال لك سلطاننا عن العمل اليوم؟"

فقال ميمندي: "ربما سيخبركم بما قاله لي."

قالوا: "أنت الصدر الأعظم. لن يخبرنا بالقدر الذي يخبرك إياه."

رد قائلًا: "إذا قال لي السلطان شيئًا ما، سيقوله واثقًا أنني لن أخبره للآخرين."

موقف هذا الشخص مثالي. فصاحب الفَرَاسَةِ لا يقول كل ما يعرفه؛ أي إذا أخبره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحدهم بسرّ فلا يخبره للآخرين.

الحكماء لديهم حِكَمٌ رائعة في مواقف إفشاء الأسرار وحفظها. دعوني أخبركم بما أتذكّره.

لا تُفشي سِرّك لصديقك عسى أن يصير عدوك يومًا ما. ولا تؤذي عدوك عسى أن يصير صديقك يومًا ما.

لا تخبر أحدًا بسِرّك. اغلق فتحة الينبوع قبل أن يفيض الماء، لأنّه إذا تضاعف وأصبح نهرًا، فلن تستطيع إيقافه.

الرجل نقي القلب سواء في حالة غياب الناس أو حضورهم؛ فهو لا يمدحهم في وجوههم ويذمهم من خلفهم.

إذا ذَكَرَ أحدهم عيوبَ شخصٍ آخر أمامك؛ فاعلم أنّه سيذكر عيوبك أيضًا أمام الآخرين.

تحدّث بين متخاصمين بطريقةٍ لا تُشعرك بالحرج عندما يتصالحان.

تحدّث وِفقًا لمزاج المُخَاطَب. فالذكي عندما يتحدّث إلى المجنون لا يتحدّث إلا عن وجه ليلى.

الذي يتحدث دون أن يزن كلامه سيؤذيه الجواب.

أحيانًا تتسبب الكلمة في العديد من المتاعب للشخص. مثلما حدث للشاعرِ في هذا الموقف.

كان الشاعر فقيرًا للغاية. ذهب لزيارة زعيم عصابة من اللصوص. امتدح الرجل بقراءة القصائد، آملًا أنْ يُعطيه شيئًا لنفسه.

لكن حدث عكس هذا، فقد قام أفراد العصابة بسرقة الرجل والاستيلاء على ملابسه. وكان فصل الشتاء. والأرض مُغطاة بالثلج.

وكأنّ كل هذا لم يكن كافيًا؛ فهاجمته كلاب القرية. أراد أن يلتقط حجرًا من الأرض لملاحقة الكلاب، لكنه لم يستطع إخراج الحجر من الأرض المتجمدة.

فقال الرجل: "أي أبناء حرام هؤلاء، حتى الكلاب أطلقوها والأحجار ربطوها!"

كان زعيم العصابة ينظر من النافذة. وعندما سمعه أخذ يضحك. فنادى على الشاعر وقال: "اطلب مني ما شئت."

قال الشاعر العاجز: "إذا سمحت، أريد ثيابي ولا أريد شيئًا آخر. لا أرجو منك الخير، فقط يكفي أن لا تقترف الشر."

هذه الكلمات دفعت رئيس العصابة إلى أن يكون مُنصِفًا. فأعطاه ملابسه. بالإضافة إلى ذلك عَطَفَ عليه بقفطان وكيس نقود.

بعد أن استمع أصدقائي لهذه القصة، طلبوا الأذن بالرحيل. قال أحدهم: "يا سعدي، عندي رجاء منك. لتحلّ علينا ضيفًا غدًا. فنحن لم نشبع من حديثك."

نظرتُ إلى الأصدقاء الآخرين، وفهمتُ من وجوههم أنّهم يريدونني أن أقبل.

قلتُ: "حسنًا ، سآتي."

التقينا في الليلة الثانية. أكلنا طعامنا. ثم اخترنا مكانًا وجلسنا. فقام صديقٌ حَسَنُ الصوتِ بقص حكاية جميلة، واستمعنا.

لقد أحيا صوته ذكرى بداخلي. عندما كنتُ أعيش بالقُرب من أصفهان، كنتُ أذهب إلى المسجد للصلاة.

كلما سنحت الفرصة كان الخطيب يصعد إلى المنبر ويتحدث بصوتٍ مُرتفع. كان صوته قبيحًا جدًا لدرجة أنّك كنت تعتقد أنّ الغربان كانت تصرخ أثناء حديثه. لكنه هو نفسه لم يكن يلحظ هذا.

كان أهل الحي يعرفون ذلك، ولكن احترامًا لمقامه ومكانته كانوا لا يقولون أي شيءٍ له حتى لا يُسبّبوا له الضيق والحزن.

وذات يوم، جاء إلى الخطيب أحد خطباء تلك المنطقة ليسأله عن حاله. وكان يَكُنُّ ضغينةً للخطيب قبيح الصوت بسبب جدال قديم. ثم بدءوا في الحديث.

قال الخطيب الزائر: "رأيتك في منامي."

"أرجو أن يكون خيرًا إن شاء الله. ماذا رأيت؟"

"رأيتُ أنّ لديك صوت جميل. يُشعِرُ الناسَ بالطمأنينة والراحة أثناء الحديث."

فكّرَ الخطيبُ قبيح الصوت في معنى الرؤيا وقال: "يا لها من رؤيا مباركة! هكذا أدركتُ عيبي. من الواضح أنّ صوتي كان قبيحًا ويُزعج الناسَ. من الآن فصاعدًا سأتحدّث أقل ولن أصرخ أبدًا."

اغتظت جدًا، مُتأثرًا بالقصة وقلتُ: "يا أعدائي، أين أنتم؟ أنا بحاجةٍ إليكم! تعالوا واخبروني بأخطائي! فأصدقائي يرون عيوبي فضيلةً ويرون شوكتي وردةً، إنّهم يخدعونني."

استمع صديقي، الذي دعاني إلى منزله، إلى كلماتي الأخيرة، وهو يبتسم. ثم روى قصةً.

كان هناك رجل يُؤذّن في مسجد سنجار ابتغاء رضوان الله. كان صوته رديئًا لدرجة أنّ الناس حاولوا إيجاد حل لتجنب سماعه.

كان صوت كحت الطين الذي يُلطّخ الرخام أشبه بشدو البلبل مُقارنةً بصوته.

كان الشخص المُتكفل بمصاريف المسجد رجلًا حسَن الخلق. لم يكن يريد كسر قلب المؤذن. وأخيرًا لم يستطع تحمُّل ذلك، ففكَّرَ ووجد حلًا لإبعاده عن هناك.

لقد قال للمؤذن: "يا أخي المخلص! يوجد مؤذنين ذوي خبرة لهذا المسجد. كل منهم يحصل على خمس ليرات في الشهر. لا حاجة لك هنا. سأعطيك مُرَتبًا عشرة ليرات لتذهب إلى مكان يحتاجك لأن تُصبح مؤذنًا هناك. بهذه الطريقة، سأحصل أنا أيضًا على الثواب."

وافق المؤذن على هذا العرض وغادر. ولكن حتى قبل انقضاء شهر، جاء إليّ الرجل.

قال: "يا سيدي، لقد خدعتني. فصلتني عن هذا المسجد وأرسلتني إلى مكان آخر مقابل راتب عشرة ليرات. ومع ذلك، فإنَّ الأشخاص الذين ذهبت إليهم يعرضون عليّ راتبًا قدره عشرين ليرة لأغادر وأذهب إلى مكانٍ آخر."

ضحك الرجل وقال: "لا تقبل العشرين ليرة، واصل الأذان، فإنَّهم سيوافقون أيضًا على خمسين ليرة."

هذه القصة اللطيفة رَسَمَتْ الضحكة على وجوه المستمعين. بناءً على هذا قصصتُ لهم إحدى ذكرياتي.

كان هناك رجلًا قبيح الصوت ويحفظ كتاب الله فكان يتلو القرآن بدون توقف. وسأله شخص حكيم: "كم تأخذ مقابل هذه التلاوات؟"

قال الحافظ: "لا آخذ أموالًا."

"إذن لماذا تتلو؟"

"أنا أتلو ابتغاء مرضاة الله."

عقَّبَ الرجل الحكيم: "إذن لا تتلو ابتغاء مرضاة الله!"

الشاب الذي يكبح نفسه، ويجتنب المعاصي، ويُسخّر نفسه للعبادة، هو أسد شجاع في سبيل الله.

اعتاد شيخي، الذي كان عالماً جليلًا، أن يشرح أهمية الخلوة والعزلة كلما سنحت الفرصة، ويمنعني من الأماكن التي تُعزف فيها المقطوعات الموسيقية التي تثير مشاعري.

لقد كنتُ شابًا. فلم أستطع اتباع النصيحة، وكنت أستسلم لهواي وشغفي. لقد استمتعت بالتواجد مع الناس، والاستماع إلى الآلات الموسيقية والغناء.

عندها خطرت على بالي نصيحة شيخي وكنتُ أردد أبيات شعر: "إذا جلس القاضي في مجلس خمرٍ سيفيض سروزًا، وإذا جلس الضابط على طاولة خمرٍ فسيعذر المخمورا"

ذات ليلة اجتمعنا في منزل أحد أصدقائي. وفي غرفة السمر، كان هناك رجل يعزف على الساز ويُغني.

كان صوته شنيعًا لدرجة أنك إذا سمعته تظن أنّ آية **{إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}** (سورة لقمان-19) نزلت فيه.

قد تعتقد أنّه عندما تصطدم الريشة بالساز، فإنّها تقطع شريان الحياة. وكان صوته يشبه صوت غراب يصرخ "مات والدك!".

بقيت هناك من أجل صديقي وعانيتُ حتى الصباح. لقد كان الوقت لا يمر.

أما المؤذن، الذي يغط في نومٍ عميق، كان يُؤذّن أحيانًا قبل موعد أذان الفجر؛ لأنّه لا يعرف كم مضى من الليل.

ومع ذلك، فإنّه من الضروري أن تسأل رموش شخص لم يغفل لدقيقة، كم مضى من الليل!

عندما حلّ الصباح، خلعتُ عمامتي من رأسي، ووشاحي من خصري وأعطيتهما للعازف كبقشيش. فاندهش الجميع من فعلتي.

قال أحد أصدقائي: "ماذا فعلت! هل العمامة الخاصة بأهل العلم والإرشاد تُعطى لعازف؟ المال أيضًا يُعدّ أجرًا. علاوة على ذلك، تعطيها لشخص طوال عمره لم تمس يده الذهب أو الفضة. لم يسبق لأحد أن رأى هذا الرجل مرتين في بيت واحد. عندما يعلو صوته تُصاب بالقشعريرة. حتى الطيور تفزع وتهرب من صوته."

قلت لصديقي: "لقد التمست الكرامة في هذا الرجل وبناءً عليه قمت بإهدائه."

"قل لنا أي كرامة حتى نتقرب إليه."

"حسنًا، لكن خُذ كلامي على محمل الجد. حذّرني شيخي مراتٍ عِدّة من الاستماع إلى الآلات الموسيقية التي تثير الرغبات السيئة ونصحني بالحكمة والموعظة الحسنة. لكن أيًا من هذه النصائح لم يلين روحي. وواصلتُ على ما أنا عليه. أما الليلة حالفني الحظ. فبسبب هذا الرجل، كرهتُ مجالس الموسيقى، وتبتُ إلى الله. هذا هو سبب استخدامي لمصطلح "الكرامة" على سبيل المزاح."

خُذ العبرة من الماضي، ولا تكن العبرة في المستقبل.

في سوق البصرة، كان الصرّاف يروي للأهالي الذين تجمّعوا حوله عن حادثةٍ مَرّ بها. فجلست في مكان مناسب وبدأت في الاستماع.

"ذهبت إلى البلاد البعيدة للتجارة. ثم ضللت طريقي ووقعت في صحراء مترامية الأطراف. ولم يتبقى معي طعامٌ أكله ولا كوب ماء أشربه. كنت أفكر قائلًا: 'لقد جاء أجلي، سأموت هنا'. وأثناء حديثي وجدت كيسًا هناك. كنت سعيدًا جدًا بهذا لدرجة أنني لا أستطيع أبدًا أن أنسى تلك الفرحة. كنت آمل أن أجد طعامًا فيه. عندما فتحت الكيس ونظرت، رأيت أنها مليئة باللآلئ. فكنت حزينًا جدًا بهذا لدرجة أنني لا أستطيع أبدًا أن أنسى ذلك الحزن. وعندما انقطع الأمل من جميع الجهات، جلست تحت شجرة وبدأت أستغفر عن ذنوبي وأتوسل إلى ربي أن يُنقذني. ثم حلّ الليل، وظهرت النجوم في السماء، وبدا القمر ساطعًا. وعندما سمعت صوت بعيرٍ أنصت بآذانٍ صاغية. نظرت، فإذا بقافلة قادمة نحوي. فسجدت لله وشكرته. إنّ هذه الحادثة علّمتني عبرة. فكما أنّ اللؤلؤ والمرجان لا ينفعان الإنسان الجائع والعطش في الصحراء، كذلك فإنّ أموال ونقود الدنيا لن تنفع من يُحاسب في القبر. فقط الإيمان والتقوى والعمل الصالح هم ما يحتاجه الإنسان يوم الحشر."

بعد أن انتهى من الكلام التفت إليّ. وسأل قائلًا: "مرحبًا يا أخي. من الواضح أنك مسافر وأنك في غُربة. من أنت، وما هي مهنتك، ومن أين أتيت، وإلى أين تذهب؟"

عرفت نفسي قائلًا: "اسمي سعدي. وأنا عبد الله. ضيفٌ في الدنيا. قادمٌ من عالم الأرواح وذاهبٌ إلى الدار الآخرة."

كلماتي هذه جعلته يبتسم.

قال: "الجميع هنا يحكون واقعة تعرّضوا لها. هل تريد أن تحكي أنت أيضًا؟"

قلت: "حسنًا".. ورويت تلك الخاطرة.

"لم يحالفني الحظ دومًا. لكنني لم أتأثر بهذا ولم أحزن. فقط شعرت بالكرب والحزن مرةً واحدة."

"لماذا؟"

"حذائي، الذي لم يستطع تحمُّل الرحلة الطويلة، تمزق وأصبح غير قابل للارتداء. ولم يكن لدي المال لشراء واحد جديد. فذهبتُ إلى مسجد الكوفة حافي القدمين. كنت حزينًا. وكان قلبي مليئًا بالغم. لكنني رأيت رجلاً بلا أرجل هناك، مما أشعرني بالخجل من حزني. فشكرت ربي الذي أعطاني ساقين سليمتين."

الأشخاص المحظوظون يأخذون العبرة ممن كانوا في الماضي، وبهذا لن يصبحوا عبرة لمن سيأتي بعدهم.

الإنسان يجري وراء رزقه، والموت يجري وراء الإنسان.

تأثر الجميع بهذه الخاطرة. وغرقوا في تفكير عميق. قال الصرّاف: "يا سعدي، أعطيتنا درسًا في الحياة لا يُنسى. من يدري ما الذي تعرّضت له أيضًا.إخكِ لي المزيد."

"حسنًا. دعني أخبرك عن حديثي مع التاجر. ذات يوم نزلتُ في بيت المسافرين. كنتُ أجلس وحدي. اقترب مني رجل مُسنّ وأراد التحدث معي. تعرفنا. لقد كان مهووسًا بالحديث عن نفسه وعن وظيفته وأحلامه. حتى أنه بدأ حديثه قائلًا: 'لدي رأس مال للتجارة يصل إلى مائة وخمسين بعيرًا، ولدي أيضًا خمسون خادمًا. أحد مخازني موجود في تركستان. ولدي متجر في الهند. وتلك الورقة هي صك ملكية أرضي في بغداد." كان يتحدث دون توقف. حينًا كان يريد الذهاب إلى الإسكندرية لأن الهواء جميل، وحينًا يتراجع ويقول: 'لا لن أذهب، لأن بحر المغرب شديد.'، وقال أخيرًا: 'لدي رحلة واحدة أود القيام بها، إذا أكملتها، سأذهب إلى زاوية وأنشغل بالعبادة.'، سألته: 'أي رحلة؟'، فقال: 'أريد أن آخذ الفراء الإيراني إلى الصين لأنه يُؤتي ثماره هناك. ومن هناك، سآخذ الأواني الصينية إلى بلاد الروم، ثم أقمشة الحرير الرومية إلى الهند، والحديد الهندي إلى حلب، والمنتجات الزجاجية الحلبية إلى اليمن، والقماش اليمني إلى فارس. بعد انتهاء رحلتي هذه، سأتوقف عن السفر.' تحدّث كثيرًا بكلام مثل هذا وأخذ يحكي عن أحلامه. تحدّث كثيرًا لدرجة أنّه لم يعد هناك مجال للكلام. في النهاية قال لي: 'يا سعدي! إخكِ لي عما سمعت ورأيت، أنا أنصتُ إليك.' بدأتُ حديثي بقول: 'إن عيون مُحب الدنيا الذي يركض طمعًا في مالها، إما تملأ عيونه القناعة أو يملأها التراب.' ثم رويت له حكاية.

في مدينة الكوفة كان يعيش رجلٌ ثري. كان لديه كل نِعَم الدنيا. لكنه لم يكن له منافسٌ في الشح. لدرجة أنه لو جاءته قطة أبي هريرة لما أطعمها لقمة ولا جبر خاطرها، ولو رأى كلب أصحاب الكهف لما ألقى عظمة أمامه. الفقراء كان لا ينوبهم من طعامه سوى الرائحة. هذا الرجل كان يسافر بهدف التجارة. كان ينوي الذهاب إلى مصر عن طريق البحر. صعد على متن السفينة. ورياح الغرور تهب في رأسه.

بعد ذلك، اندلعت عاصفة شديدة. والأمواج العملاقة أخذت تعصف بالسفينة، وكانت السفينة تهتز بشكل مفزع. حينها حنا الرجل رأسه المنتصب بالكبر والثراء، وحنا قامته المنتصبة بالغرور، وجثا على ركبتيه وبدأ في التضرع. يقول الحكماء: 'إن اليد التي لا تُمد للفقراء بنية الإحسان في السراء، لا يُجدي مدها للدعاء في الضراء. فأعظم عون يقدّمه الإنسان لنفسه هو الإحسان إلى الناس.' وأخيرًا غرقت السفينة ومات الرجل غرقًا مثل فرعون المتكبر. وورث ثروته قريبه الفقير. كنت أعرف الرجل الذي ورث. لكن عندما رأيته بعد أن أصبح غنيًا تعرفتُ عليه بصعوبة. كان قد تخلّى عن ملابسه الرثّة وارتدى ملابس جديدة من أجود أنواع الأقمشة. وكان يمتطي حصانًا ذي أرجل قوية. وكان بجانبه خدم، يفعلون كل ما يأمر. فقلت لنفسي: 'آه، ماذا سيحدث إذا عاد الغني المتوفّى إلى الحياة فترة وجيزة ورأى كيف تنفق أمواله وعلى يد مَن!' ثم أمسكتُ الرجل الذي ورث من يده وقلتُ له: 'يا أخي، ذلك الرجل الطالح كنَز المال طوال حياته، لكنه لم يكن يأكل ولم يكن يُطعم أحدًا. فخُذ العبرة من هذه الحادثة واطعم نفسك والفقراء. ولا تكن مثل قارون. لقد كان قارون رجلًا من بني إسرائيل. قد أعطاه الله ثروةً لا حصر لها. لكنه لم يمس أحدًا بخيرٍ. كان الناس يقولون له: 'أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك'، لكنه لم يعيرهم اهتمامًا. وكان يقول بوقاحة: 'إنما أوتيته على علم عندي.' فكانت نهايته سيئة. فلا دام قارون ولا دامت ثروته. لقد ابتلعتهم الأرض جميعًا. إنه يُحاسب الآن، وسيُحاسب أكثر.'

نوعان من الناس يُعانون عبثًا: الذي يجني المال وبه لا يأكل، والذي يُحصّل العلم وبه لا يعمل.

تكثّف حديثنا، الذي كان يجري في سوق البصرة، بشكلٍ جيد. كنتُ أحكي القصة تلو القصة. كنت أُزيد في روي الحكايات للشغوفين وهم يقولون: "اخكِ المزيد."

كما نالت حكاياتي إعجاب الصائغ. فقال: "يا سعدي، كن ضيفي الليلة. وادعوا رفاقي أيضًا. لنأكل ونشرب ونسمر قليلًا."

في تلك الأيام، لم يكن لديّ عمل لأقوم به ولا طريق لأذهب إليه. فقبلت عرض الصائغ.

ذهبنا إلى منزله الذي كان مثل القصر. أكلنا طعامًا لذيذًا وشربنا شرابًا حلوًا. وكنا نتحدث كذلك. قصصت عليهم أولًا قصة الصياد.

ذات يوم سقطت سمكة عملاقة في شبكة هذا الصياد. لكن لم يكن لديه القوة لسحبها وإخراجها. فأخذت السمكةُ شبكةَ المسكين وذهبت.

لام الصيادون الآخرون الرجل قائلين: "أي نوع من الصيادين أنت، تسقط سمكة كهذه في شبكتك ولا تتمكن من إخراجها."

قال الصياد: "من الواضح أنّ تلك السمكة لم تكن رزقي، أو أنّ السمكة ما زال لها رزقًا في الدنيا. لا تلوموني. فحتى أمهر الصيادين لا يمكنه صيد سمكة واحدة في نهر دجلة إذا لم تكن من نصيبه. ولا تموت على البر سمكة لم يأت أجلها."

بعد سرد حكايتي، شكرتْ صاحب المنزل على كرم ضيافته. فالصائغ حقيقةً كان شخصًا مُتواضعًا وكريمًا.

قلتُ: "هل أتحدثُ عن رجلٍ يشبهك من حيث الثروة فقط لا من حيث الإحسان والضيافة؟"

ابتسم وقال: "يا سعدي! كل ما لديّ هو نعمة ربي وهو إلى زوال. مهما كان الإنسان ثريًا، فإنّ طعامه وشرابه وملابسه إلى زوال. كما أنّ طاولة طعامي ليس لها أهمية

بجانب طاولة حديثك. انظر إلى حديثك الجميل."

بناءً على هذا أخبرتهم عن رجل سمين وأحمق. بالطبع لم أذكر اسمه حتى لا تكون غيبة.

كان يمتطي هذا الرجل حصانًا، وكان يرتدي ثيابًا مزخرفة، وكان يربط على رأسه عمامة في غاية الفخامة.

سألني أحد الرجال بجواري: "يا سعدي، كيف تجد تلك الملابس المزخرفة والمزيّنة على هذا الأبله؟"

قلتُ: "تبدو وكأنّها نص قبيح مكتوب بماء الذهب."

أضحكت كلماتي الصائغ. وكان الليل قد بسط رداءه. فشعرتُ أنّه من الضروري ترك لذة المحادثة وطلبتُ الإذن.

قال: "يا سعدي، اتركِ قصة أخرى وغادر" .. فقصصتُ له قصة الدرويش.

كان هذا الدرويش قد انزوى إلى كهف، واعتزل الدنيا. وكان لا فرق في نظره بين السلطان والفقير.

كان يقول: "إذا سلك الإنسان طريق التسول؛ فسيمد يده لهذا وذاك حتى الموت. وإذا تخلى عن الجشع وتحرر من المذلة؛ سيصبح سلطانًا حقيقيًا."

ثم جاء رجلٌ فاحش الثراء ورفيع المقام لزيارة الدرويش. ودعاه بأدب إلى قصره. قال: "إنّه لشرف لنا أن نستضيفك ونقدّم لك الطعام."

فكر الدرويش وقال: "إنّ إجابة الدعوة من السُنّة. ورجال الله أمثالنا يجب عليهم اِتباع السُنّة."، ثم قَبِلَ عرض الرجل الغني.

في مساء اليوم التالي جاءت سيارة مزيّنة وأخذت الدرويش. كان الأغنياء يأكلون ويشربون ويقضون وقتًا ممتعًا معًا في قصر يشبه قصر السلطان.

وبعد منتصف الليل أعادوا الدرويش إلى كهفه. غط الدرويش في نوم عميق

مسرورًا بانتشاله يومًا من الدنيا.

بعد فترة جاء الرجل الغني مرة أخرى. وكان ينوي شكر الدرويش على قبوله دعوته.

فاستقبله الدرويش واقفًا، مبديًا احترامًا لم يبده لأي شخص من قبل. وانهال عليه بالمديح. فتعجب تلامذته من هذا.

بعد أن ذهب الرجل الغني، جاء أحد التلامذة إلى الدرويش. سأله: "إنك لا تتصرف هكذا أبدًا. لماذا فعلت هذا؟"

فأجابه الدرويش: "من يأكل على مائدة شخص ما مُجبر على احترامه. لقد اختلطت لقمة الغني بدمي. لذا لم أكن لأتصرف بطريقةٍ أخرى."

بعد سرد هذه القصة، أنهيتُ الحديث بهذه الجمل الحكيمة: "إذا لم تسمع الأذن الموسيقى، فلا بأس بذلك. ويمكن للعين أيضًا التخلّي عن حديقة مليئة بالورود والزهور. ومن لا يجد وسادة من الريش يصنع وسادة من الحجر. لكن المعدة الخاوية والتي تنكمش من الجوع لا يمكنها الاستغناء عن الطعام. إنّ الشيء الذي يجعل الإنسان عبدًا للإنسان هو المعدة."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُجرح العديد من قلوب المُهذّبين على يد الوقحين.

كنتُ في طريقي إلى دمشق. لم أكن أرغب في السفر بمفردي لأن الطريق كان خطيرًا ومُملًا. فبدأت أبحث عن رفيق سفر.

قابلتُ ثلاثة دراويش في محل الإقامة. تقدّمت نحوهم وألقيت التحية. قدّمت نفسي وقدموا أنفسهم.

لقد كانوا أصدقاء مُقربين. لم يتركوا بعضهم البعض أبدًا، حتى إنهم كانوا يسافرون معًا.

قلتُ: "هل تسمحون لي بالانضمام إليكم؟"

قالوا: "لا."

قلتُ: "أنا وحدي وغريب وفي حاجةٍ إليكم. حرماني من صداقتكم ليس من آداب الدراويش. وأعدكم أنني لن أكون عبئًا عليكم أبدًا، بل على العكس، سأكون رفيقًا مرحًا ومُخلصًا."

تحدث أحدهم وقال: "يا أخي! لا تنزعج من موقفنا. فإنك إذا استمعت إلى الحادثة البغيضة التي حدثت لنا، ستعذرنا."

"أي حادثة؟"

" كانت قبل عامين. كنا نسافر معًا. وجاء إلينا رجل يلتحف بزي الدراويش وقال إنه يريد إكمال الطريق معنا. فخدعنا برداء الدراويش الذي على ظهره وقبلناه بيننا. ومع ذلك، فإنّ المرء لا يمكنه معرفة حقيقة ما بداخل الشخص بمُجرّد النظر إلى ملابسه. الكاتب وحده هو من يعرف المكتوب في الرسالة. لكنه جاء في لحظة غفلة، فلم نتذكر تلك المواعظ. وذات يوم مشينا حتى المساء. وعندما بدأ الظلام يحل، أقمنا عند مدخل بلدة وغرقنا في النوم. تظاهر هذا الرجل بالنوم لكنه لم ينم. ثم بدون أن نشعر تركنا وذهب إلى البلدة. حيث دخل من نافذة أحد المنازل وسرقها، ثم اختفى عن الأنظار. عندما طلع النهار تمّ اكتشاف السرقة. وظن أهل القرية أننا من

فعلنا هذا. فألقوا القبض علينا وزجوا بنا في السجن. والله وحده يعلم ما مررنا به حتى أثبتنا براءتنا! منذ ذلك الحين، لم نضم أي شخص إلينا.»

هذه الحادثة المليئة بالعبرة، علّمتني درسًا. وبالرغم من أنني لم أستطع أن أكون صديقًا للدراويش، إلا أنني استفدت من تجربتهم.

إنّ الأشخاص المتواجدون معًا مسؤولون عن بعضهم البعض. إذا أخطأ شخص من الجماعة، تلتصق التهمة بهم جميعًا.

حتى إنّه إذا دخل ثور واحد إلى الحقل ليأكل المحاصيل، يقولون: «دخلت ثيران القرية الفُلانية إلى الحقل.»

وإذا سقط كلب في بركة مليئة بماء الورد، فإنّ البركة تعتبر قذرة.

لهذا السبب، يجب على المرء أن يكون حَذِرًا للغاية عند اختيار الأصدقاء أو الانضمام إلى جماعة.

إنّ الذنب يكون أشد سوءًا إذا صَدَرَ من أهل العلم، لأنّ الناس يتخذونهم قدوة.

عندما رفض الدراويش انضمامي إليهم، واصلتُ الطريق وحدي. وأخيرًا، قُرب المساء وصلتُ إلى بيت المسافرين ومكثتُ فيه.

بعد منتصف الليل، اندلعتْ عاصفة مفزعة واستمرت في الصباح. لم أكن أستطيع الرؤية. ولم يكن من الحكمة الخروج في هذا الطقس. فوجب عليّ البقاء هناك عدة أيام، شئت أم أبيت.

في هذه الأثناء، كوّنت صداقات جديدة. كنا نجد مكانًا مناسبًا، فنتبادل أطراف الحديث، ونخبر بعضنا البعض بذكرياتنا. هناك كان صديق من الشام يشارك في الحديث ويروي قصةً مليئة بالعبرة.

كان هناك رجل من متصوفة الشام. قد قضى حياته يعيش في الغابة، ويأكل الأعشاب البرية، وكان مشغولًا بالعبادة في كوخه الهش غير المتناسق.

عرف السلطان بأمر هذا الشخص وذهب لزيارته. فأشفق على وضع الصوفي الفقير البائس.

قال: «دعني أجهز لك مكانًا في المدينة إذا كان هذا يُناسبك. سيتم توفير جميع احتياجاتك، وانشغل أنت فقط بالعبادة. ومن ناحيةٍ أخرى، يأتي الناس لزيارتك، ويأخذون العبرة من مواقفك، ويستفيدون منك، فيتغيّر حالهم بوجودك.»

رفض الصوفي العرض وقال: «لقد تركتُ الدنيا ابتغاء وجه الله. لا أستطيع العودة إلى النّعَمِ الدنيوية الفانية مرةً أخرى. ولا أستطيع التراجع عما قلت.»

عندئذٍ قال أحد الرجال القادمين مع السلطان: «لا يجب أن نُسبّب للسلطان حُزنًا. ولا ينبغي أن نضرب بكلمته عرض الحائط. فلنبحث عن حلٍّ يُرضي الطرفين.»

«كيف؟»

«تعال إلى المدينة فترةً واسكن في المنزل الذي سيُخصص لك. إذا تضررت حالتك الروحية، وإذا تضررت البهجة النقية في قلبك، ستعود إلى مكانك مرةً

أخرى.»

بدا هذه الكلام معقولًا للصوفي. فقال «حسنًا، لنفعل ذلك»... ومن ثم انتقل إلى منزل في حديقة السلطان الخاصة.

لقد كانت الحديقة حديقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى! جنة في الدنيا تُشع الفرح وتفتح القلوب وتُهدئ الروح! تشبه الورود القرمزية على خدي الحسناء، وتشبه السنابل على صدغيها.

أرسل السلطان جاريةً إلى الصوفي بوجه القمر، وجمال الطاووس، تخطف الأنظار، وتأسر القلوب، وتبهر كل من يراها.

كما أعطاه خادمًا. هذا الخادم، الظريف الأنيق حسن المظهر، كان دائمًا رهن إشارته.

بدأ الصوفي بأكل الطعام اللذيذ، وشرب الشراب الحلو، وارتداء الملابس الأنيقة. وكانت الحسناء دائمًا معه.

يقول أهل الحكمة: «إنّ خد الحسناوات هو السلسلة التي تربط قدم العقل، كالفخ الذي يمسك بالطائر الحر.»

خلاصة القول؛ اعتاد الصوفي على حياته الجديدة. فأصبح جسده سمينًا ووجهه ورديًا. وكان يتلذذ بوقته أمام الطعام، وبجانب الجارية. فلم يعد هناك أثر لحاله القديم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظن السلطان أنّه يقدّم معروفًا للصوفي، وكان يشعر بالسعادة كلما رأى حاله الجديدة. لكن الشخص الحكيم الذي كان مع السلطان لم يعجبه حال الصوفي.

ذات يوم قال: «يا حضرة السلطان، أنت تحب العلماء والصوفية. ولكن هناك طريقة لنحبهم بها أيضًا.»

سأل السلطان: «ما هي؟»

«إذا كنتَ تريد أن تفعل الخير، فأعط الذهب لأهل العلم حتى يتمكنوا من تحصيل علم جديد والتقدّم به. ولا تعطِ للصوفي شيئًا حتى يظل صوفيًا. فالمرأة الجميلة على الفطرة لا تحتاج إلى أقراط من الزمرد وخاتم من الفيروز، وكذلك الصوفي أيضًا لا يحتاج إلى الذهب والمال.»

قال السلطان الذي استمع إلى الرجل الحكيم بتمعن: «أنت تقول كلامًا غريبًا. زِد الشرح قليلًا حتى أتمكّن من الفهم بشكل أفضل.»

ولهذا، روى الرجل الحكيم حكايةً.

كان لأحد السلاطين القدماء رغبة مهمة. حَذَرَ وأنذَرَ قائلًا: «إذا تم هذا العمل كما طلبت تمامًا، سأقدّم مئة قطعة ذهبية للصوفيين.»

وتم الانتهاء من العمل على النحو الذي أراده السلطان. أعطى السلطان كيسًا من الذهب لخادمه وقال: «وزع هذا على الصوفيين!»

كان الخادمُ شخصًا حكيمًا وماكرًا. بعد التجول هنا وهناك طوال النهار، أحضر الكيس الممتلئ وسلّمه إلى السلطان.

سأل السلطان قائلًا: «لقد قلتُ لك إعط الذهب الموجود في الكيس للصوفيين، لماذا لم تفعل ذلك؟»

فأجاب الخادم: «يا حضرة السلطان، لقد تجوّلتُ حتى المساء. والصوفيون لا يأخذون المال، بل إنّ من يفعل ذلك ليس من الصوفيين.»

ضحك السلطان وقال: «إنني أكنّ كراهيةً للصوفيين المزيّفين بقدر المحبة التي أكنّها للصوفيين الحقيقيين.»... بعد ذلك، السلطان أمر الخادم وقال: «إغط هذا المال لطلاب العلم الفقراء غدًا.»

قصصتُ عليه قصةً أيضًا. قد سمعتها من شخص صاحب علم وحكمة عندما كنتُ طالبًا. كان أحد السلاطين مفتونًا بالخمر. أكل وشرب وسكر حتى الصباح.

كان يصرخ ويقول: «نحن في حالة جيدة! لا نشعر بالقلق! هذه هي السعادة!»

سمع أحد الدراويش، الذي كان يمر في الطريق، هذا الكلام. كان فصل الشتاء وكان الطقس باردًا. لم يكن الدرويش يرتدي أية ملابس تحميه من هذا البرد.

صرخ في اتجاه النافذة: «يا سلطان، لنفترض أنك لست قلقًا على أحد، ألا تقلق علينا أيضًا؟ أنت سلطاننا!»

سمع السلطان صوت الدرويش. وأعجب بكلماته. ففتح النافذة وقال: «افتح عباءتك!»

فأجابه الدرويش: «هل لديّ ألبسة ليكون لديّ عباءة.»

عند هذه الكلمة، ازدادت رحمة السلطان أكثر. فأعطى كيسًا من الذهب وثوبًا إلى الدرويش.

أفرط الدرويش في تبذير وإسراف المال في فترة قصيرة. وبالضبط مثلما لا يبقى الماء في الغربال، لم يبق المال في يد الدرويش.

ثم جاء الدرويش المفلس أمام القصر مرةً أخرى. وقد كان السلطان مشغولًا. ومع ذلك، أبلغوه بحالة الدرويش. فغضب السلطان.

وقال: «تخلّص من هذا الوقح! كيف يمكن للمرء أن يُهدر كل هذا المال في مثل هذا الوقت القصير! إنّ المبذرين إخوان الشيطان! وإنّ الرجل الذي يُضيء شمعةً أثناء وجود الشمس في النهار لن يمكنه العثور على الزيت ليضعه على قنديله بعد فترة.»

عند سماع وزير حكيم لهذا قال: «يا حضرة السلطان، هذا النوع من الناس يجب إعطاؤه نفقات بشكل يومي، وبهذا لا يُبذرون المال. نعم، إنّه مُخطئ فيما فعل. لكن دعنا لا نطرده من أمام الباب. فقد يعتقد بعض الناس أنك بخيل. وأيضًا لا يليق بأصحاب الحمية أن يعطوا شيئًا لأحدهم ويفتحوا باب الأمل أمامه، ثم يتركونه محرومًا. لا ينبغي للمرء ألا يفتح باب الإحسان، أو أن يفتحه ثم يغضب ويغلقه.»

أحب السلطان نصيحة وزيره وأمر بمنح الرجل العطايا تدريجيًا.

أصحاب القناعة والزهد، لا يتذللون لأحد.

عندما تحسّن الطقس، غادرتُ بيتَ الضيافة. ووصلتُ إلى الشام بعد رحلةٍ طويلة.

عند مدخل المدينة ظهر أمامي رجل لم أكن أعرفه وقال: «لقد أرسلني سيدي. إنّه يريد أن يستضيفك في منزله. تفضّل لنذهب.»

تساءلت: «يا ترى هل سيده شخص يعرفني؟». كانت الطريقة الوحيدة لمعرفة هذا هي قبول دعوته. فذهبنا معًا.

ثم اتضح أنّه لا يعرفني ولا أنا أعرفه. لكنني سرعان ما عرفت سبب الدعوة.

اتضح أنّ هذا الشخص كان مضيافًا مثله مثل الأثرياء. كان بعد الظهر يرسل رجاله إلى بوابات المدينة ويدعو المسافرين إلى منزله.

وكان يرد على المتسائلين: «لماذا تفعل هذا؟»، قائلًا: «إنني أطبق عادة إبراهيم عليه السلام.»

كان هناك آخرون جاءوا قبلي. ولم يكن أحدٌ من الناس يعرف أحدًا. ثم أخذونا إلى غرفة كبيرة.

بدأ الضيوف في التعارف والحديث مع بعضهم البعض. أما أنا فكنت منزويًا.

وكان من بينهم أُناس أصحاب حكمة وتجارب، يعرفون كيف يتكلمون. قالوا أشعارًا جميلةً وكلامًا حكيمًا.

نظرتُ فإذا بدرويشٍ هناك أيضًا. لم يكن يتكلم قط، فقط كان يستمع إلى ما يُقال.

قال أحد الضيوف: «أيها الشيخ الدرويش، لماذا تصمت، فلتقل شيئًا أنت أيضًا.»

«ليس لديّ أي ميزة مثل الآخرين. أنا لا أعرف البلاغة والفصاحة. أعرف بيت شِعر واحد فقط.»

«حسنًا. فلتقله ولنستمع.»

«كالأعزب لباب حمّام النساء مُتجسسًا، هكذا أنا للمائدة المُقبلة من المطبخ مُتلهفًا.»

أحب المستمعون هذا القول وتعالت ضحكاتهم. فقال صاحب البيت: «يا رجل، تَحلَّ بالصبر قليلًا. إنني أطهو الكفتة.»

حينها قال الدرويش: «فلتأتِ بمائدة الطعام ولا داعي للكفتة، فلقد أصبحتُ بالفعل كالكفتة من عناء السفر!»

أراد أحد المسافرين جعل الدرويش يتحدث أكثر. فسأله سؤالًا: «ما رأيك في تناول الدراويش لخبز الوقف؟»

«هذا سؤال في غير محله وفي غير أوانه، لكنني سأجيب عليه على كل حال. يختلف الحكم في هذه المسألة وِفقًا للنية. إذا كانوا يأكلون ليُكرِّسوا أنفسهم للعبادة، فهذا حلال. أما إذا اجتمعوا ليأكلوا، فهذا حرام.»

كانت المائدة لم تُجهَّز بعد. فشارك أحد المسافرين في الحديث وروى حكايةً ذات عبرة.

ذهب طالب علم لزيارة أستاذه، وقال له: «يا شيخي، كثيرًا ما يأتي الناس لزيارتي. إنَّ ذلك يُتعبني ويُثقل عليّ. علاوة على ذلك، ففي هذا مضيعة للوقت. بماذا تنصحني؟»

أوصاه الشيخ قائلًا: «إذا كان الزوار فقراء فأقرضهم المال، وإذا كانوا أغنياء فاطلب منهم اقتراض المال، وبهذا لن تأتي المجموعتان إلى منطقتك مرةً أخرى، ولن يزعجوك.»

محبةُ الأشياء الفانية، مُصيبةٌ كبيرة.

إنّها عادتي منذ زمنٍ قديم، عندما أذهب إلى مكان لا أعرفه، وأكون وسط أشخاص لا أعرفهم، أفضّل الاستماع بدلًا من التحدث.

وقد فعلتُ ذلك مرةً أخرى. ثم التفت إليّ صاحب البيت بابتسامةٍ حلوة وقال: «أنا أنتقد الناس كثيرًا. وأعتقد أنك أهل علم وحكمة. أخبرنا بشيءٍ لننتفع به.»

قلتُ: «أستغفر الله! أنا الذي أستمع وأستفيد. لكن ما دام الحديث فُتِحَ عن الدروشة، دعوني أخبركم بخاطرةٍ عن هذا الموضوع.»

كان لديّ صديقٌ ذو علم. قد اعتاد الذهاب إلى التكية وتكوين صداقات مع الدراويش. ثم بدأ يأتي إلى المدرسة للجلوس مع العلماء.

كنتُ أتساءل عن السبب. فسألته: «يا أخي، ما الفرق الذي لاحظته بين الصوفي والعالِم لتترك الصوفيين وتبدأ بالحديث مع العلماء؟»

وَضّحَ السبب بإيجازٍ وقال: «إنّ الصوفي هو القبطان الذي يُنقذ سفينته مُحاولًا إنقاذ نفسه. أما العالِم فهو مُنهمك في إنقاذ أولئك الذين سقطوا في الماء. وعندما أدركتُ الفرق فَضّلتُ العلماء.»

بعدما استمع صاحب البيت لخاطرتي بعنايةٍ، قال: «يا لها من قصةٍ جميلة! إحكِ المزيد. لا تحرمنا.»

عندئذٍ، رويتُ محادثةً هادفةً دارت بين صديقي وابنه. قال صديقي: «يا بُني! لقد لاحظت أنّ كلام الواعظين لا يُؤثّر فيك. وفي كل مرة تختلق الأعذار ولا تأتي. لماذا تفعل هذا؟»

فأجاب الطفل: «لأنّ عملهم لا يتوافق مع كلامهم. إنّهم يقولون للناس إنّ الدنيا فانيةٌ وكريهة وينصحونهم بالابتعاد عنها، لكنهم يعملون على اكتناز المال ويركضون خلف الشهوات. ماذا أفعل بنصيحة عالم لا يعمل بعلمه! ألا يقول ربنا - عز وجل - في الآية: **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)﴾**

((سورة البقرة).

"نعم أنت مُحق. إنّ العالِم الذي يمتلئ قلبه بحب الدنيا مثل المُرشد الذي يحاول أن يدل الآخرين على الطريق رغم أنّه ضل طريقه. ومع ذلك، لا ينبغي أن يُبعدك هذا عن مجالس العلم. إذا افترضنا أنّ جميع العلماء ضالّون، وإن كنت أتوقع أنني سأجد عالمًا بريئًا، فإنّ ذلك يحرمك من العلم. حتى الرجل الحكيم يأخذ نصيبًا من أقوال الآخرين. يجب على المرء أن يُعير اهتمامًا حتى للنصيحة المكتوبة على الحائط. لذا بالرغم من كل شيء، استمع إلى العلماء، وتعلّم كلماتهم الصائبة والجميلة، وطبقها على حياتك. وليكن عمله لنفسه، وعملك لنفسك. فكّر في أهل العلم كتفكير التاجر. لنفترض أنك ذهبت إلى السوق وأعجبتك قطعة قماش. لا تفكر فيما إذا كان هذا التاجر تقيًا أم آثمًا. فقط ادفع أموالك، وخُذ القماش. ثم اختاط منها ملابسًا جميلة وارتديها. هكذا اعتبر طائفة الواعظين كالتاجر في السوق. هم أيضًا يضعون علمهم على الطاولة. خُذ ما تحتاجه واعمل به. لا تحرم نفسك. هل سمعت قصة الأعمى والقنديل؟"

"لا."

"حسنًا، استمع... ذات يوم سقط رجلٌ أعمى في الوحل وهو يسير في طريقه. أخذ يصرخ ويقول: 'أيها الناس، أعطوني قنديلًا!'. فقالت واحدة من النساء المارّات: 'إنك لا تستطيع أن تُبصر، فماذا سترى بضوء القنديل؟'"

"ماذا يجب عليّ أن أتعلّم من هذه القصة؟"

"الكفيف لا يمكنه رؤية القنديل ولا الأشياء التي يمكن رؤيتها بضوئه، لكن المُبصر يمكنه معرفة الطريق مُستفيدًا من ضوء القنديل الذي في يد الكفيف. هكذا أيضًا حال العالِم الذي لا يعمل بعلمه. رغم أنّه لا يستفيد بعلمه، إلا أنّ العلم الذي في يده يُعم الفائدة. كن ذكيًا، استفد من الضوء، جِد طريقك، ولا تسقط في الوحل. فالعالِم الذي لا يتجنب المعصية مثل الأعمى الذي يحمل مشكاة. يدل الناس على الطريق، لكنه هو نفسه لا يرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحزنُ الذي تفرح بعده، خيرٌ من السعادة التي تُحزنك في النهاية.

انحلت عقدة لساني. وكان الضيوف ينصتون باهتمام. فواصلت سرد خواطري.

كان صديقٌ لي يلتحف بزي درويش. وكان يُستفاد من عِلْمِ شيخه. فترك حاله القديم وبدأ يعيش حياةً طاهرةً نقية.

لكن بعض الفاسدين كانوا يزعجونه، ويتحدثون ضده باستمرار ويؤذون قلبه.

ذات يوم جاء إليّ وشرح وضعه. قال: "أريد أن أزور شيخي وأخبره بما حدث لي. هلا أتيت معي؟"

قلتُ: "حسنًا"... وذهبنا معًا.

شرح وضعه وبدأ الحديث بقوله: "يا سيدي، إنهم يتحدثون ضدي باستمرار، ويؤذونني. لهذا السبب أنا أعاني."

عندئذٍ قال له شيخه: "يا بُني، إنّ الشخص الذي يرتدي عباءة درويش يجب أن يكون مستعدًا لتقبل كل محنة. فهذا الزي حرام على الرجل الذي يتأفف من أن أموره لا تسير على ما يرام. اصبر إذا أصابك بلاء أو مصيبة، لأن هذا سيُكفّر عن ذنوبك، ويُطهّرك من آثامك. إذا كنتَ ستصبح ترابًا في النهاية، فمن الأفضل أن تحاول أن تكون بالفعل مثل التراب. لقد خُلِقَ الإنسان من التراب. فإذا لم يكن متواضعًا مثله، فلا يُدعَى إنسانًا. إنّ الكبر، والغرور، والسخط، والعصيان لا يليقوا بالإنسان. لذلك من المناسب أن نقول للغاضبين والعاصين: 'بحالتك هذه لابُدّ أنك خُلِقت من النار، لا من التراب.' فإما أن تتحمل مثل التراب أو أن تدفن كل ما تقرأ تحت التراب."

لقد استمعتُ أنا أيضًا إلى هذه النصيحة بأُذنٍ حية وتعلّمت درسي.

ذات يوم رأى شخص صاحب علم رجلًا قويًا شديدًا قد هاج لسانه من شدة الغضب وتحدث بدون ضابط ولا رابط.

فسأل: "ماذا حدث للرجل؟ لماذا هو غاضب؟"

قالوا: "هذا الرجل مصارع مشهور. يستطيع حمل مئة حجر أوقيّة بسهولة. قال له

أحدهم كلمة سيئة، فغضب."

قال: "أي نوع من المصارعين هذا الذي يتحمل مئة حجر أوقية ولا يستطيع تحمّل كلمة واحدة."

إنّ البحر لا يعكر ولا يفيض بإلقاء حجر فيه. أما الشخص الذي يثور عندما يتعرض لكلمة أو فعل سيئين؛ فهو يشبه كوب الماء.

يجب على كل من كانت الأرواح لعبة في يده ألا يتحدث عن الرجولة والمروءة.

فالشجاعة ليست لَكَمَةً في الفم، إنما تحلية الفم إن أمكن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كُنْ صَالِحًا واخرِجهم.

لأروي لكم قصة عابد مُولع بمعدته، مُحب لبطنه، نهم للطعام، حتى يكتمل الموضوع.

كان هذا العابد يأكل عشرة وجبات على العشاء، ثم يجلس يذكر الله ولا ينام حتى وقت السحر.

سمع بهذا شخص صاحب علم. فقال: "لو أكل نصف رغيف ونام لكان أفضل."

إذا كنتَ تريد أن يسطع نور العلم في قلبك، فعليك أن تُبقي معدتك فارغة. فالشخص الذي يأكل حتى التُخمة لا يبقى بداخله مكان للحكمة.

قاطع الحديثَ مسافرٌ من بين الضيوف كان يسمع حديثنا وأخبرنا قصةَ رجلٍ تائبٍ.

هذا الرجل قضى حياته غارقًا في الذنوب. ثم جعل الله له نصيبًا من الهداية. فبدأ بالتردد على أحد الشيوخ.

وابتعد عن كل أنواع الذنوب، ولم يعد يتبع أهواءه وشهواته، وعاش حياةً مُستقيمة.

لكنه لم يستطع النجاة من ألسنة بعض الوقحين الذين كانوا يغتابونه ويطعنون فيه ويتحدثون من وراء ظهره.

كانوا يقولون: "لا تكترثوا لدخوله في حالة الزُهد هذه، فهو ما زال على ما كان عليه في السابق."

سمع الرجل هذا وشعر بالحزن. وروى لشيخه ما يُقال عنه.

بكى الشيخ وقال: "كيف يمكنك أن توفيهم شكرهم! إنك أفضل مما يظنون. لكن من الأفضل أن يقول الناس إنك سيء وأنت جيد، بدلًا من أن يقولوا إنك جيد وأنت سيء."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد عشتُ حادثةً مشابهة لهذه. قال بعض المغتابين أشياء سيئة في حقي وشتموني في حضور الآخرين.

قلتُ هذا لشخص ذي مكانة. فاستمع إليّ، ثم أجاب بإيجازٍ شديد: "كُنْ صَالِحًا واخرِجهم."

لقد خرجت من الأحداث التي عشتها بالدرس التالي: يجب ألا نأخذ مدح الناس أو ذمهم بعين الاعتبار، بل نفكر في "ماذا يقول الله؟".. إنّ رِضَاه هو أهم شيء.

كان هناك رجل صالح وتقي في مجلس مُزدحم. كان الناس يمتدحونه ويمجدونه في حضوره.

لكن هذا المديح كان يُشعره بالخجل. فقال للمادحين: "كفى، اصمتوا! كلماتكم تحزنني لأني أعرف نفسي أفضل منكم. أنتم ترون ظاهري فتمدحونني. أما أنا أنظر إلى باطني، فأخجل بسبب الاختلاف بينهما. إنّ الناس ينظرون إلى ريش الطاووس فيمدحونه، أما الطاووس فيشعر بالخجل بسبب أقدامه القبيحة. كذلك هو حالي."

من الأفضل ترقيع ملابسك القديمة وارتدائها، بدلًا من طلب ملابس من "بيت المال".

لقد كوّنتُ بعض الصداقات خلال سنوات دراستي. وكان بعض الأصدقاء من الدراويش الفقراء. كلما سنحت لي الفرصة، كنتُ أذهب إليهم وأتحدث معهم.

ذات يوم، اصطحبتُ معي صديقًا مُقربًا لي وذهبنا إليهم. كنا نجلس معًا ونتحدث. ثم طرق أحدهم الباب، ففتحوا له.

كان جزّار الحي. واتضح أنّ شيئًا له كان يريد أخذه من الأصدقاء. لقد اشتروا مقدارًا من اللحم بالآجل ولم يتمكنوا من دفع ثمنه.

أخذ الجزار يتحدث بلا ضابط. والدراويش كانوا يستمعون وهم يحنون رؤوسهم خجلًا. لم يكن لديهم خيار سوى تحمُّل هذه الكلمات القاسية.

فقام صديقي، الذي كان يُتابع هذا المشهد بكل حزن، بإخراج كيسًا من جيبه وسدّد دين الدراويش وطرد الجزار.

ثم التفت إلى الدراويش وقال: "لا تشتروا اللحم من هذا الرجل مرةً أخرى. فكَبْح الرغبة في أكل اللحم وإحزان النفس، أفضل من أكل الكلمات النابية التي تفوّه بها هذا الرجل، والشعور بالحزن."... ثم قص عليهم حكايةً.

كان هناك درويشان من خراسان. كانا يسافران معًا. أحدهما كان ضعيفًا. اعتاد أن يأكل أقل. فكان يأكل مرةً كل ثلاثة أيام. أما الآخر كان قويًا. قد اعتاد أن يأكل ثلاث وجبات في اليوم، وإذا وقع تحت يده المزيد ابتلعه أيضًا.

أثناء إحدى الرحلات مروا على مدينة غريبة. كان الجنود ينتظرون عند مدخل المدينة، يستجوبون كل من يأتي. ثم استجوبوا هذين الدرويشين واتهموهما بالتجسس وزجوا بهما في السجن.

وبطريقةٍ ما نسوا الدرويشين في الزنزانة المظلمة. فلم يأت أحد إليهما مدة أسبوعين.

وأخيرًا قبضوا على الجواسيس الحقيقيين. عندئذٍ جاءوا لتحرير الدرويشين المسجونين ظلمًا. فوجدوا أنّ الضعيف الذي كان زاهدًا في الأكل قد بقي على الحياة، أما القوي الذي كان يأكل كثيرًا فقد مات.

لقد اندهشوا من هذا الموقف وأخبروا الطبيب.

فقال الطبيب: "ما المدهش في هذا؟ إذا كان الأمر مُعاكسًا فكنتُ سأُفاجأ. إنّ ترك العادات هو سبب الهلاك. لهذا، الذي تعوّد على أن يأكل كثيرًا لم يتحمّل الجوع ومات. لكن الذي كان يأكل قليلًا تحمّل ونجا."

استمع الدراويش إلى القصة. ثم شكروا صديقي الذي أنقذهم من كلام الجزار البذيء. وظهرت السعادة على وجوههم.

واصلنا الحديث عن الطعام. ورويت لهم قصةً خطرت على بالي.

ذات يوم أُصيب مُحارب مغوار في هجوم المغول. فجاء رجلٌ لزيارته وقال: "يوجد علاجٌ عند التاجر الفُلاني. إذا أردتَ، يمكنك أخذ القليل منه، ثم أدهنه على جرحك وسوف تتحسن حالتك."

اتضح أنّ التاجر كان شخصًا بخيلًا. فكما يُضرب بحاتم المثَل في الكرم، يُضرب بذلك التاجر المثَل في البُخل.

قال المُحارب: "أنا أعرف ذلك الرجل. لو وُجدت الشمس على مائدته بدلًا من الخبز، لما رأى الناس وجه النور إلى يوم القيامة. إذا طلبت الدواء، فإنّه إما يعطيني أو لا. ولنفترض أنّه أعطاني، فإنّ دواءه لن يُجدي نفعًا، لأنّ ترياق البخيل كالسم. وأنا أُفضّل الموت في عِزةٍ على العيش في ذِلةٍ."

في إحدى الأيام ذهبتُ لزيارة شيخي. كان يخبر الناس من حوله عن خداع النفس. فجلستُ وأنصتُ.

عندما أُتيحت لي الفرصة، سألتُ عن معنى الحديث الشريف "إنّ أخبث أعدائكم هي نفسكم التي بين حاجبيكم"

فأجابني قائلًا: "إذا رأى عدوك منك خيرًا، ربما يُصبح صديقك في المستقبل. أما النفس فليست كذلك. كلما أحسنتَ إليها، كلما تمردت عليك وتحدتك وبحثت عن طرقٍ لإيذائك أكثر."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تُعلق قلبك بالأشياء الفانية، حتى لا تذرف الدمع عندما تفقدها.

بما أنني أحدثك عن أحد أصدقائي الطلبة، دعني أحدثك عن صديقٍ آخر. كان اسمه فرحات. تزوّج فور تخرجه وبدأ التدريس في إحدى المدارس الصغيرة.

أما أنا فقد ذهبت بعيدًا. فلم نتقابل لسنوات. وأخيرًا مررت بالمدينة التي كان يعيش بها، والتقينا. كان يبدو حزينًا. فسألته عن السبب، وحكى لي.

قال: "لقد ازداد عدد الأفراد في المنزل. وما أكسبه لا يكفي. مصاريف المدرسة يدفعها رجلٌ غني. أريد أن أذهب إليه وأطلب منه زيادة راتبي، لكنّي لا أجرؤ. تعال لنذهب معًا. فإنك إذا كنتَ معي، يمكنني شرح مشكلتي بشكل أفضل. من فضلك لا تحرمني من هذا الكرم."

لم يعجبني هذا الطلب، لكنني لم أستطع رفضه. لقد كان هناك خاطر للسنوات التي قضيناها سويًا. فذهبنا معًا ذات مساء.

استقبلنا صاحب المنزل بوجهٍ باسم. وأحسن ضيافتنا. لكن عندما تحدث صديقي عن حاله بوجهٍ حزين وطلب زيادةً في راتبه، عقد الرجل ما بين حاجبيه.

لم يعجبه أن يطلب أحد أصحاب العلم مالًا كأنّه يتسول. لقد زاد راتبه كرهًا، لكن في مقابل هذا قلّ حبه لصديقي. رأيتُ هذا وشعرت به بشكل واضح.

طلبنا إذنه وغادرنا. لم أكن أتوقع أن تكون النتيجة مهينة إلى هذا الحد.

قلتُ: "يا صديقي، لقد زاد راتبك، لكنك قللت من شأنك. لقد وضعت القِدر على الموقد، لكنك أسقطت شرفك. لقد أسأت إلى نفسك وأحزنتني. ليتك تصرفت مثل العجوز المتعفف الذي في القصة!"

كان مُدركًا لحالته. فلم يدافع عن نفسه. وبعد دقيقة من الصمت، قال: "أي قصة؟"

وبحماس، قصصتُ له قصة "حاتم" المشهور بالكَرَم.

في أحد الأيام سألوا حاتم: "هل رأيتَ أو سمعتَ عن شخص أكثر عطاءً وسخاءً منك؟"

قال: "نعم." وحكى تلك الخاطرة: "ذات يوم، قمتُ بذبح أربعين جملًا ودعوتُ أعيان القبائل إلى وليمتي. بعد أن تناولنا طعامنا، ذهبنا في جولة. فرأينا رجلًا عجوزًا في الصحراء. كان يكسر أغصان الشجر، ويكومها، ثم حملها على كتفه. كانت الأشواك تغرز في ظهره، مما أدى إلى نزيف جسده. فشعرت بالأسف من أجله. وقلتُ دون أن أقدم نفسي: 'يا أخي، ألم تسمع، لقد فتح حاتم وليمة ويقيم مأدبة. كما أنّه يُحسن إلى ضيوفه الفقراء. اذهب أنت أيضًا. من ناحية تملأ معدتك ومن ناحيةٍ أخرى تحصل على خمسمائة قرش مقابل حمولة أغصان بخمسة قروش.'. فأجابني: 'سأحمل هذه الحمولة ذات الأشواك بكرامتي، ولن أتذلل لحاتم.'، هكذا وجدتُ ذلك الرجل العجوز أكثر عطاءً، وأكثر شرفًا، وأعلى قدرًا مني."

إنّ الرجلَ الطماع سيظل جائعًا ولو ملك العالم، بينما يشبع الرجل القنوع من رغيفِ خبزٍ واحدٍ.

لا توجد مُصيبة أعظم من حب الدنيا الفانية، لأنّ وجود أموال الدنيا وانعدامها أيضًا هما من أسباب المعاناة.

فإذا لم نُعمر الدنيا سنواجه الصعوبات، وإذا فعلنا سنحب الدنيا ويتعلق قلبنا بها. لكنها فانية وإلى زوال. وتُدمّر القلوب.

اسأل الفقراء عن طعم العنب، لا البستاني.

كان حضرة شيخي سهروردي يتصرف بتعفف ولا يقبل مِنَّةً من أحد. كان يُبدي اهتمامًا لكبار الدولة، لكنه لم يكن يذهب إلى أبوابهم. ذات يوم سألته عن سبب هذا السلوك. فأخبرني بقصة أحد الدراويش.

كان هناك درويش يعيش بمفرده في الصحراء. قد زَهَدَ عن نِعَم الدنيا. كان يأكل أي شيء يجده حلالًا ولا يطلب أي شيء من أحد.

ذات يوم كان يجلس أمام كوخه. وبطريقةٍ ما، سَلَك السلطان طريقه من هناك. رآه الدرويش لكنه لم ينهض.

عند رؤية هذا، غضب السلطان.

مر السلطان وهو يقول: "جماعة الدراويش هذه لا فرق بينها وبين الحيوانات من الأساس!"

رجال السلطان سحبوا الدرويش إلى زاوية. وقالوا له: "لقد مر السلطان بجوارك ولم تنهض ولم تبدِ أي احترام!"

قال الدرويش: "اذهب وأخبر السلطان أن ينتظر الاحترام من الأشخاص الذين ينتظرون منه المال. إنّ السلطان موجود لحماية الناس. ولم يُخلق الناس لعبادة السلطان. فالخراف ليست موجودة من أجل الراعي، بل الراعي هو الموجود من أجل الخراف. دعه يفتح المقابر القديمة ليرى هل سيعرف مَنْ الملك ومَنْ الفقير؟ لقد جرفهم طوفان الزمن. الشيء الذي ينفع هو الإيمان والعمل الصالح."

أخبروا السلطان عما قاله الدرويش. وبعد أن فكّر قليلًا، اعترف أنّه على حق. فذهب إلى جوار الدرويش.

قال: "يا درويش، لقد غضبتُ ونطقت بالتُرّهَات. وأريد أن أقدم لك إحسانًا لأسامح نفسي. اطلب ما تريد مني!"

"لستُ بحاجةٍ إلى إحسانك. طلبي هو ألا تأتي إلى هنا مرةً أخرى وتزعجني."

"من الواضح أنك مؤمن حقيقي وصادق. لقد أثرت كلماتك فيّ. قدّم لي نصيحة وسأذهب."

"بعد فترة، سيأخذ الأجل حياتك أيضًا. وسينتقل مالك وملكك لأشخاص آخرين. فكلما أتيحت لك الفرصة والإمكانية، اعمل في سبيل الحق وانظر إلى مكاسب الدار الأبدية."

"أيها الدرويش، إنك تقول قولًا سديدًا. إذا كان لديك أي نصيحة أخرى، أود أن أسمعها أيضًا."

"حسنًا.. عندما يزدان البلد بأشخاص حكماء، يزداد جماله. وحاجة السلطان للحكماء أكثر من حاجة الحكماء للسلطان. بالرغم من أنّ الخدمة ليست من عمل الرجل الحكيم، إلا أنه يجب ألا تعطها إلا لرجل من الحكماء. فكما لا يمكن لثلاثة أشياء أن تدوم دون ثلاثة أشياء. مال دون تجارة، علم دون مذاكرة، وسلطنة دون سياسة. إنّ العفو عن الظالم ظلمٌ للمظلوم. وإذا داعبت الشخص السيئ بالكرم، سيريد أن يشاركك في حُكمك. ومن يقيم صداقات مع عدو صديقك سيكون على استعداد لإيذاء صديقك. استمع إلى عدوك، ثم افعل عكس ما يقول. حتى لو كان يدلك على طريق مستقيم كالسهم، فلا تسلك هذا الطريق. السيف هو آخر الحيل. فمن الخطأ حمل السيف عندما يكون من الممكن تسوية الأمر بطرق أخرى. إذا كان للقط الكسول أجنحة فإنّه حتمًا سيقضي على جنس العصافير. وعلى المنوال نفسه، لو كان بعض العاجزين أصحاب قوة لجعلوا الحياة سجنًا للضعفاء. بعض الناس يحافظون على دينهم بسبب الفقر، وعندما يحصلون على الثروة يقعون في الخطيئة. وبعض الناس يحافظون على دينهم بالثراء، وعندما يطرق الفقر بابهم يحاولون التمرد."

إنّه غبيّ لدرجةٍ دفعتني للجنون.

إنّ الطالب الذي يتلقّى العلم مهمّ بقدر المُعلم الذي يقدّم العلم. فالأشخاص لا يتشابهون.

لذا يجب على المعلم أولاً اكتشاف موهبة وذكاء طالبه، ومن ثم إعطائه الدروس المناسبة.

كما أنّ العَالِم الذي كان مسؤولًا عن تعليم الأمير قد فعل هذا.. سأوضح بإيجاز.

كان هناك عَالِمًا مشهورًا بعلمه وعرفانه وفضيلته، كان يُعلّم ابن السلطان بين أطفال آخرين.

كان يُعطي واجبات أكثر للأمير، وإذا تكاسل فإنّه يوبخه ويضطهده ويضايقه أكثر من أي شخص آخر.

وذات يوم اشتكى الأمير لوالده السلطان من مُعلمه.

قال: "إنّه يؤذيني بطريقة لا يفعلها مع الآخرين. يُعاقبني بأقسى العقوبات. مع أنّه لا يتصرف هكذا مع الأطفال الآخرين. بسبب هذا المعلم، أصبحت الدنيا سجنًا لي."

فاستدعى السلطان العَالِم.

سأله قائلًا: "إنك تقسو على ابني قسوة لا تُريها لأبناء الشعب، لماذا تفعل هذا؟"

قال المعلم: "أيها السلطان، على كل إنسان أن يلقي الكلمة بعد أن يفكّر فيها، وأن يتصرف بشكل حكيم. لكن هذا إلزامي للطفل الذي سيصبح سلطانًا في المستقبل. فلا أحد يكترث إذا قال شخص عادي شيئًا خاطئًا أو أصدر قرارًا غير صحيح. لأنّ تأثيرها يكون ضعيفًا. لكن الكلمة أو الفعل الخاطئين للسلطان يهتم به الناس. لأنّه إذا أصدر قرارًا خاطئًا، سيتأذى الكثير من الناس. بناءً على هذا، فإنني أهتم بالأمير أكثر من طلابي الآخرين، وأضغط عليه لينشأ نشأةً حسنة، ولا أتغاضى أبدًا عن أخطائه."

"حسنًا، فهمت ذلك. من الواضح أنّ نيتك حسنة. لكن أميري صغير في السن، لا يمكنه تحمّل ذلك."

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

"أعرف. لكن الشجرة تنحني عندما تكون صغيرة. فما أن تجف الشجرة يصعب ثنيها. لذا فإنّ التعليم الذي لم يتم تقديمه في سن مُبكرة سيكون صعبًا في المستقبل."

أعجب السلطان بأسلوب المُعلم. وأغدق عليه بالإحسان وقدّم له الهدايا، كما قام بترقيته.

ذكّرتني قصة السلطان والأمير بالوزير وابنه، بالحديث عن ذلك، دعني أخبرك إياها.

كان للوزير ابن غبي. قام الأب بتسليم ابنه لمعلم ماهر لعله يصبح ذكيًا.

بَذَلَ المعلم كل جهوده ولكن دون جدوى. فأحس بالعجز وكتب رسالةً قصيرة إلى الوزير.

قال: "لقد فعلت ما بوسعي، لكن ابنك كان غبيًا، لدرجة أنّه دفعني إلى الجنون."

نعم، هذه هي الحقيقة. فالحديد لا يتحوّل إلى فضةٍ عن طريق التلميع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلم من أجل تغذية الدين، وليس من أجل إتهام الدنيا.

ذات يوم سألت شيخي: «ما هي حقيقة التصوف؟». فأجابني قائلًا:

«قبل ذلك، كان هناك بعض الرجال خربين من الخارج، لكنهم معمورين من الداخل. هكذا التصوف كحال هؤلاء. أما اليوم فقد ظهر قسم من الناس، مهندمين من الخارج، وذابلين من الداخل. هؤلاء لا علاقة لهم أبدًا بالتصوف. إذا لم يتخذ قلبك قرارًا، وإذا أخذ يتخبط بين الأماكن في كل ساعة، فلن ترى الراحة حتى لو كنت في عُزلة أو خلوة. لكن إذا كان مالك وممتلكاتك ومحاصيلك وتجارتك لا يمنعونك من أن تكون مع الله، ستكون دائمًا في عُزلة وخلوة.»

«ما السمات الأخرى المطلوبة؟»

«طريق الدراويش عبارة عن عشر أسس: الذِّكر، الشُّكر، العون، الطاعة، الإيثار، القناعة، التوحيد، التوكُّل، التسليم، والتحمُّل. ومن يتصف بهذه الصفات يظل درويشًا حتى لو كان يرتدي قفطانًا ثمينًا. لكن الشخص الثرثار، المهذار، الخاضع لشهواته، ذي الرغبات القبيحة، الذي يركض وراء الشهوة حتى المساء فيقضي الليل في نوم الغفلة، الذي يأكل كل ما يُوضع أمامه، ويقول كل ما يأتي على لسانه، لا يصبح درويشًا بارتداء الأسمال. افعل ما يريد ربك أن تفعله، وإنْ شئتَ ارتد ثوبًا من أفضل الأقمشة. فما فائدة مُعدات الحرب للجبان!»

«حسنًا، كيف يجب أن تكون الأخوة على طريقة الدراويش؟»

«إنَّ أبسط فضيلة يجب أن يتصف بها الأخ الحقيقي هي أن يُؤثر حاجة أخيه على حاجته. فما بالك بأعظمها! كما أنَّ الشخص الأناني الذي يفكِّر في نفسه فقط لا يمكن أن يكون أخًا أو صديقًا.»

لقد أخبرتُ صديقًا حميمًا لي بهذه المحادثة. فكَّر قليلًا ثم قال: «يا سعدي، هذه كلمات جميلة. أتفق في أنَّه يجب أن يكون الشخص كما يبدو. لكن هناك جانب آخر للمسألة.»

«ما هو؟»

«إنّ الإنسان بمرور الوقت يُصبغ بصبغة الأشخاص الذين يلازمهم. فالشخص الذي يُلازم الدراويش ربما في يوم من الأيام تُصيبه ريحهم، فينشر العبير في جميع الأنحاء.»

ذكّرتني كلمات صديقي بأحد تخيّلاتي. كان هذا بمثابة مجيء الدواء على اللسان. بالحديث عن ذلك، دعني أحكي لك هذا التّخيّل.

ذات يوم رأيت باقة ورود مربوطة بالعشب فوق طاولة. قلتُ: «يا للغرابة! تلك الورود النضرة وهذا العشب عديم القيمة جنبًا إلى جنب، وملتفان على بعضهما البعض أيضًا.»

بكى العشب الذي سمع هذا وقال: «اصمت! لا تتحدّث عبثًا! أينسى أصحاب الكرم الصداقة أبدًا! صحيح أنّه ليس لديّ لون جميل ولا رائحة جذابة، لكني من الحديقة أيضًا حيث تنمو هذه الورود.»

لقد تعلمتُ الدرس. وقلتُ لنفسي: «يا سعدي! اسلك طريق الرضا ولا تيأس من الرحمة! فأتعس الأشخاص حظًا هو الذي يُدير رأسه عن هذا الباب ولا يجد بابًا آخر. ليس لديك أي ميزة أو فضيلة لتُقدّمها، لكن لا تفقد الأمل. فالله الذي لا تنتهي رحمته لن يحجب رحمته عن شخص عاجز مثلك.»

رجال طريق الحق يحاولون عدم إيذاء قلوب حتى أعدائهم، فما بالك بحال هذا الشخص حين يتخاصم مع أصدقائه!

بالحديث عن المتصوفة، دعني أخبرك بذكرى أثّرت عليّ سنوات.

كنتُ حينها في سن الرُشد. كنتُ أقرأ بشغف كل كتاب يُصادفني بنيةِ تطوير نفسي. لكن كانت عندي مشكلة مُهمة. لقد كنتُ أجد صعوبةً في جعل نفسي أُطبّق النصيحة.

بينما كنتُ أكافح وحدي، أصبح بعض الناس من حيّنا أتباعًا لشيخ ما. وكلما التقينا، كانوا يمتدحونه ويحاولون إلحاقي بهم.

ذات يوم قرروا زيارة شيخهم. وأرادوا اصطحابي معهم. في الحقيقة أنا أيضًا كنت أشعر بالفضول.

قبلتُ العرض. فجعلوا حادي الجمال يُعِدُّ جملًا آخر. ركبنا جمالنا وسِرنَا في طريقنا.

لقد وَجّهوا لي تنبيهات صارمة قبل مجيئي إلى الشيخ. قالوا: «إياك أن تفكر بأمور سيئة، فشيخنا يعرف ما في قلبك!».

ماذا يمكنني أن أقول! فقط قلتُ حسنًا.

هكذا هو إبليس، فبمُجرّد دخولي إلى تكية الشيخ بدأ يحضر في ذهني أشياء لم تكن لتحضر أبدًا.

لو كانوا تركوني وشأني، ولم يعطوني مثل هذا التنبيهات، لما حضر أي منها في ذهني. على أي حال...

وصلنا إلى مقام الشيخ. فقبّلنا يده باحترام. وكان الجميع يجلسون بصمتٍ أمامه. هذا هو الأدب، إذا تكلم الشيخ أنصت، وإلا فالتزم الصمت..

فالشيخُ مُباركٌ حتى وإن لم يتكلم إطلاقًا.

كان حادي الجمال مصطفى من النوع فارغ العقل الذي لا يعرف أقل شيء عن

آداب المتصوفة. لقد كنت أعرفه من قبل. الرجل كان يتصف بكل سلوك سيء.

سأل سؤالًا قائلًا جملةً تبدأ بـ «يا سيدي.. أنا هنا.. نعم أنا». فأجابه الشيخ بإيجاز. كان الجواب في غاية الإيجاز. كما كان من نوعية مقولة «الكلمة كالسهم حين تنطلق لا تعود». أعتقد أنّ الجمّال لم يفهم. لا، أنا متأكد أنّه لم يفهم.

كنتُ قد قرأتُ بعض الأشياء المتعلقة بالموضوع في تلك الأيام، فكانت معلوماتي طازجة. فلم أستطع تملك نفسي وقلتُ ما أعرفه. كما أعطيته اسم الكتاب الذي استفدتُ منه. من وجهة نظري كان كلامي تفصيليًا وفَهِمَ الجمّال.

حَدّقَ الشيخ بي وهو عابس الوجه وعاقد الحاجبين. ثم قال في حِدّةٍ وشِدّة: «لقد قلتَ هذا أيضًا يا ولد!»

فشعرت بالخجل ونظرتُ إلى الأرض وصمت. أعتقد أن أولئك الذين اصطحبوني ندموا أيضًا على اصطحابي، لقد شعرت بذلك من نظراتهم.

مرت السنين مثل جريان الماء. ولا أعرف ما إذا كان الشيخ لا يزال على قيد الحياة. ولا أعرف أيضًا ما الذي يفعله أتباعه.

ذات ليلة، تذكّرتُ تلك الحادثة. وهذا يعني أنّها تركت أثرًا بداخلي. فالآثار التي تُترك على النفوس الطازجة لا يمكن محوها بسهولة.

أعدتُ تجسيد المشهد في مُخيلتي. واستحضرتُ خيال الشيخ وقلت:

«يا شيخنا! لم أستطع إخبارك حينها بما يدور في ذهني، لذا سأخبرك الآن. أعتقد أنك لم تفعل ما يليق بشيخٍ حقيقي في ذلك اليوم. ألم يكن من الأفضل لو كنتَ استمعت إليّ بلطفٍ وقلتَ: ‹ما شاء الله، يا للجمال! إنّه لمن الرائع جدًا أن تكون مُطلعًا وتقرأ الكتب.›، أو قلتَ شيئًا من هذا القبيل؟ حسنًا، لم أكن أعرف الآداب، وكنتُ جاهلًا بأصول بدء الحديث، وكنتُ غافلًا في التعبير عن رأيي في حضورك، ألا ينبغي لرجلٍ مثالي مثلك أن يعي هذا؟ لقد كسرتني. لقد جرحتني. لقد أحزنتني.. أنا آسف!»

إنّ قول هذه الكلمات، حتى وإن كان خيالًا، أراح داخلي قليلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان الذي لا يعترض البلاء طريقه في الدنيا، سوف يُبتلى بعذاب الآخرة.

انضممتُ إلى قافلةٍ للذهاب في رحلة الحج. كنا نسير على الطريق ليلًا ونهارًا. حتى انتهت طاقتي من شدة النعاس، ولم أعد قادرًا على أن أخطو خطوةً واحدة.

نمت تحت الشجرة، فوق الرمال. وقلتُ لحادي الجمال: «اتركني وشأني. يجب أن أنام. وليكن ما يكون.»

قال حادي الجمال: «يا أخي، الحرم من أمامنا واللص من خلفنا. إذا مشيت ستنجو بروحك، وإذا بقيت ستموت. من الجيد الاستلقاء والنوم تحت ظل شجرة، لكنك حتمًا ستلقى حتفك في سبيل هذا.»

كلمات الجمّال أثّرت عليّ. وفكّرت فيما يمكن أن يحدث لي عندما أكون وحدي في صحراء مقفرة.

فتحوّل قلقي وخوفي إلى قوةٍ إضافية. وواصلت المشي.

بمرور الزمن وصلنا إلى واحة. نظرتُ فإذا بدرويشٍ جريحٍ هناك. قد هاجمه نمرٌ، وأصاب جسده بجرحٍ مميت. وأخذ الأشخاص من حوله يشرحون حالته.

لم يُجد أي دواء نفعًا. وهو يعيش منذ فترة طويلة في معاناة وألم من هذا الجرح. بالرغم من هذا لم يكن ساخطًا، بل كان يشكر الله ويقول: «الحمد لله، لقد ابتليت بمصيبة وليس بمعصية.» وكان يقول أبيات الشّعر هذه:

«إذا سلّمني خليلي للجلادِ سأكون حزينًا،

هذا الحزن ليس لخوفي من السقوط صريعًا

لكن بسبب تساؤلي عما فعلتُ ليحزن الرفيقا.»

بعد فترة من الراحة عدنا إلى الطريق. وانضم إلى القافلة درويش حافي القدمين عار الرأس. كان وهو يسير يردد الأبيات التالية:

«لستُ فوق جملٍ ولا تحت حمولةٍ كحمارٍ ذي نهيق

لستُ سيد ولايةٍ، ولستُ للسلطانِ رقيق

لا أملك شيئًا أحمل بسببه الأحزان

ولا أغتم على شيءٍ لم أحصّله وأقول ليته قد كان

أنا حرٌّ، أنا طليقٌ، أتنفس في رخاء

وكلُّ نفسٍ لي يُضاهيه عمر بلا شقاء.»

أراد رجلٌ ثري يسافر بهيبة على ظهر جمل سريع المشي أن يُقدّم له النصيحة.

قال: «أيها الدرويش! إنك لا تملك حصانًا ولا بعيرًا لتركبه. وجسدك ضعيف. والخبز الذي تأكله جاف. بهذه الحالة لن يمكنك الوصول إلى هدفك، ستموت في الطريق.»

لم يستمع إليه الدرويش وواصل طريقه. وبعد السفر عدة أيام، توقفنا في بلدة.

جاء أجَلُ الرجل الثري الذي كان يسافر فوق البعير وينصح الدرويش، ثم تُوفي هناك. أما الدرويش فقد واصل طريقه.

قال الصديق الذي يمشي بجواري: «نحن لا نعرف ما يخفيه القدر. مَنْ سيموت ومتى، هذا في علم الغيب. إنّ المستقبل مليء بالأسرار.»

قلتُ أنا أيضًا: «نعم، أنت محق. يقولون إنّ رجلٌ بكى أمام مريضٍ حتى الصباح. وعندما حلّ الصباح مات الذي بكى على المريض، وتعافى المريض وعاش سنوات.»

لقد رأيتُ ذلك بنفسي رؤيةً لا مجال للشك فيها؛ فالرجل الذي كان يسير ببطء قطع الصحراء، والآخر الذي كان يذهب مُسرعًا بقى في منتصف الطريق.

يسير الحصان العربي بسرعة لكنه يتعب بعد وقتٍ قصير. أما الجمل بطيء لكنه يسافر ليل نهار.

الطالب بلا إرادة كالعاشق بلا مال، والرحّال بلا معرفة كالطائر بلا أجنحة، والعالِم بلا عمل كالشجرة بلا فاكهة، والزاهد بلا علم كالبيت بلا باب.

من بين الذين انضموا إلى قافلة الحج بعض الشباب ذوي القلوب اليقظة. أحيانًا كانوا يطربوننا ويرددون أبياتًا تمس الروح.

كان هناك برفقتنا أيضًا عابد جاهل مُحاكي لا يتصف بأي صفةٍ تُميّزه. وكان جاهلًا بالعالم الروحاني للدراويش. لهذا كان يُنكر حالهم.

ثم وصلنا إلى خيمةٍ كبيرة يعيش بها البدو. عندها خرج طفل من بين الخيام، يغني بصوت مرتفع.

حتى الطيور على الأغصان تأثرت بوقع صوته العذب. وبدأ جمل العابد الجاهل يتحرك بحماس، فقفز العابد من فوق ظهره وأمسك برأسه وسلك طريقه في الصحراء.

لقد غضب العابد المذهول الذي لم يستطع فهم ما حدث وثَارَ مُكرّرًا ما حفظه.

فقلتُ: «يا أخي! حتى الصوت الجميل أثّر على الحيوان، لكنه لم يؤثر عليك. إلى متى ستظل في القشرة، إلى متى ستعيش دون بصمة تُميّزك؟ عندما تبدأ الرياح بالهبوب تتأثر أطراف أغصان الشجر وتهتز، أما الأحجار فلا تتحرك. هل تعتقد أنّ البلبل الواقف فوق الوردة هو الوحيد الذي يُسبّح بلغته الخاصة؟ لا، ربما كل ورقة شجر تُسبّح بلغتها الخاصة.»

أخيرًا وصلنا إلى هدفنا. وبدأنا في أداء مناسك الحج. أثناء الطواف لفت انتباهي أحد الدراويش. كان يضع جبهته على مدخل الكعبة ويبكي قائلًا:

«يا الله يا غفور يا رحيم! أنت تعلم بعلمك اللانهائي أنّ الظالم والجاهل لا يمكنهم أن يعبدوك حق عبادتك. لذا جئتُ إليك أعتذر عما بدر مني من قصور في عبادتك. فكما يتوب العاصون عن ذنوبهم، أتوب إليك عن عبادتي التي لم أوفِها حقها، وأرجو عفوك. وكما يطلب التجار ثمنًا لبضاعتهم، أطلبُ منك مُكافأة عبادتي. لقد جئتُ إليك مُتقربًا بأملي لا بعملي. جئتُ للتسول لا للتجارة. افعل بي ما يليق بك، ولا تفعل ما

يليق بي. إن شئت أهلكني، وإن شئت اعف عني جُرمي. وها أنا وضعت وجهي على عتبتك. لا يحق للعبد المُساومة. لذا أنا راضٍ بحكمك، ومُطيع لأمرك.»

العالِم بين من لا يعرفون قدر العلم، كالجميل بين المكفوفين.

ركبتُ جملي وتقدّمت في طريقي إلى الشام. كان يوم الجمعة. فتوقفت عند بلدة. وربطت جملي بشجرة بجوار المسجد ووضعت أمامه بعض الحشائش.

دخلتُ ساحة المسجد. وجلستُ تحت شجرةِ صِنّار. فتقدّم نحوي رجلٌ عجوز قد لاحظني وألقى التحية.

قال: «من الواضح أنك رحّال. من أين أتيت وإلى أين تذهب؟»

قدّمتُ نفسي. وعندما قلتُ اسمي تحمّس كثيرًا. قال: «لقد سمعتُ باسمك.»

كيف وصلت سمعتي إلى هذا المكان البعيد يا تُرى؟ كنتُ أشعر بالفضول لكنني لم أبد اهتمامًا.

كان هذا الرجل العجوز أحد أعيان البلدة. وقد لبى جميع احتياجات المسجد بنفسه. فطلب مني رجاءً.

قال: «إنّ أهل البلدة دائمًا يستمعون إلى إمام المسجد. والآن قد ألفوه. فتضاءل تأثيره عليهم. من فضلك إصعد إلى المنبر وقُل شيئًا.»

لم أستطع قبول طلبه.

عندئذٍ أصرّ قائلًا: «كما تعلم، للعلمِ زكاة. فلا تحرمنا من علمك.»

قلتُ: «حسنًا.. وصعدتُ على المنبر وبدأت الحديث. وكان أمامي جماعة عيونهم مجمدة وقلوبهم في سُبات عميق ولا يحركون ساكنًا.

فرأيتُ أنّ كلامي لا يُؤثّر على المستمعين، وناري لا تُوقد حطبهم المبتل. شعرتُ بالأسف على نفسي وقلتُ في نفسي: ‹أبدو مثل تاجر يبيع المرايا في حي المكفوفين.›

كنتُ أريد أن أقطع الكلام في منتصفه وأنزل من فوق المنبر، لكن باب المعنى كان مفتوحًا وسلسلة الكلام كانت طويلة. لقد تعمقتُ في الكلام، وتأثرت ببديع

البلاغة. فكان هناك العديد من الكلمات على طرف لساني في انتظار أن تُقال.

ثم دخل رجلٌ من الباب. كانت ملابسه مُغطاة بالتراب. من الواضح أنّه كان مسافرًا مثلي. فكان له نصيبًا من الجرعات الأخيرة لإكسير كلامي. وفي وقت قصير احتدم غضبًا.

فانطلقت الثورة التي في روحه على لسانه، وصرخ صرخةً شديدة. وبأثر هذه الصرخة انتبه الجهلاء الذين في المسجد وثاروا.

قلتُ لنفسي: «مُستيقظ واحد يمكنه أن يُوقظ ألف نائم. وشمعة بحجم الإصبع يمكنها إزالة الظلام الدامس وإضاءة الغرفة. إذا لم يفهم المستمع الكلام، تزول البهجة والشوق عند المُتحدّث. استمع إلى المتحدّث بروحك حتى يتحمس الخطيب ويُضيف روحًا إلى روحك.»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صوت الطبل يحجب صوت الكمان.

خرجتُ من المسجد. وعندما رآني الرجل، الذي جاء وصرخ، أمام الباب تقدّم نحوي وقال: «لقد كنتُ أنتظرك.»

سألني إلى أين أنا ذاهب، فأخبرته. وتبيّن أننا كنا مسافرين على الطريق نفسه.

سألني: «هل يمكننا الذهاب معًا إذا كنتَ لا تُمانع؟»

فقلتُ: «حسنًا، لنذهب»

سرنا في طريقنا. ومن ناحيةٍ أخرى كنا نتبادل أطراف الحديث أيضًا. كان مُتحدثًا لطيفًا، عاقلًا، وذي قلبٍ مملوء بالحكمة. قلت لنفسي، «قد أرسل الله هذا الرجل إليّ.»

رأيت أنّه يقول أشياء جيدة، ففضلت الاستماع عن التحدُّث. لقد كان يقص عليّ إحدى خواطره.

ذات مرة كان مُسافرًا مع قافلة. عندما حلّ الظلام، وجدوا مكانًا مناسبًا فأقاموا به. وبينما كانوا مُستغرقين في النوم، انقض عليهم اللصوص وأخذوا كل ما بحوزتهم.

ومن بين المسافرين، كان رجل حكيم يعرف كيف يتكلم. قالوا له: «إغطِ بعض النصائح لهؤلاء اللصوص، قُل كلامًا حكيمًا حتى يردوا ما أخذوه. هذا عارٌ على أموالنا.»

قال الحكيم: «العار الحقيقي هو أن نقول كلمات حكيمة لمثل هؤلاء الناس! مثلما لا يخترق المسمار الحجر، فإنّ النصيحة لا تُؤثّر على الشخص ذي القلب الأسود. ما دمتم تريدون، إذن فلأخبركم ببعض الكلمات الحكيمة ولأحكي لكم الحكايات المليئة بالعبرة، فأنصتوا. إذا كنتم لا تريدون أن يحل عليكم بلاء، فأجبروا القلوب المنكسرة في وقت الرخاء. إذا طلب فقير شيئًا منك ولم ترحمه وتعطه، سيأتي طاغية ويسلبه منك بالقوة. إنّ الشخص الذي يعرف قيمة الحكمة يأخذ العبرة حتى من الكلمة المنطوقة على سبيل المزاح ويتعظ. أما الجاهل إذا قُرئت بجانبه مئة صفحة من كُتب الحكمة، سيبدو الأمر له وكأنّها قصة خيالية. لا تندهش إذا لم تحصل

كلمة صاحب العلم على الاهتمام بين عديمي الأدب، فصوت الطبل يحجب صوت الكمان.»

ثم رويت أنا أيضًا خاطرة لرفيقي المسافر بهدف التجارة.

ذات يوم ذهبت لزيارة رجل صوفي. وكان هناك رجلًا جاء قبلي. وأثناء الحديث سأل الصوفي وقال له: «لقد قال فُلان أشياء سيئة عنك. كيف تعرفه حتى الآن؟»

أجابه الصوفي: «لا أرى شيئًا سيئًا في الخارج، ولا أعلم ما في الداخل. لا يمكنني إصدار حكم بناءً على الظن.»

عندئذٍ قال الرجل: «أنا تاجر. أعطني نصيحة كهذه تنفعني مدى الحياة.»

فأوصاه الصوفي: «لا تُقرض المال لشخص لا يُصلي.»

«لماذا؟»

«إنّه لا يؤدي فروض ربه فهل سيعيد إليك مالك!»

أخيرًا، وصلنا إلى الشام. عندها قال لي: «يا سعدي، سأقوم بالتسوق وأعود أدراجي في الحال. أعتقد أن طريقنا ينقطع هنا. لقد كان من الجميل جدًا مُصادقتك. ربما لن نرى بعضنا البعض مرةً أخرى. سامحني.»

قلتُ: «سامحتك يا أخي. وأنت أيضًا سامحني. لا نعلم ماذا يُخفي القدر، ربما نلتقي مرة أخرى. إذا لم يكن في الدنيا ففي الجنة إن شاء الله.»

ثم تعانقنا وافترقنا.

إذا كنتَ ترغب في إدامة مالك الفاني؛ فأنفقه وأحسن إلى الناس.

كنتُ أتحدّثُ مع العلماء في المسجد الأموي. إذ دخل شاب من الباب وبدأ ينظر حوله بعناية. عندما رآنا توجّه نحونا. بعد أن ألقى التحية، سأل قائلًا: «هل يعرف أحدٌ منكم الفارسية؟»

فأشاروا نحوي. سألته: «خير إن شاء الله. لماذا تحتاج إليها؟»

أجابني: «هناك كهلٌ يبلغ من العمر مئة وعشرين عامًا، على وشك الموت. يقول شيئًا بالفارسية ولا نفهمه. إذا استمعت إليه وأخبرتنا معناه سيكون لك الثواب. فمن المحتمَل أنّه يُعطي وصيته.»

ذهبنا معًا. وجلستُ بجانب الرجل العجوز. كان يقول هذه الكلمات:

«قلتُ أريد أن أخذ قسطًا من الراحة، لكن للأسف توقّف نَفَسِي. هيهات! لقد أكلنا من مائدة الحياة المليئة بالخيرات الوفيرة، ثم قالوا كفى.»

أخبرتُ معنى هذه الكلمات للأشخاص بجواري. فاندهشوا أنّه بالرغم من عيشه عمرًا مديدًا بهذا القدر إلا أنّه يُفارق الحياةَ بأسفٍ وحسرة.

سألتُ الكهل: «كيف حالك؟»

قال: «أنت تعرف مُعاناة شخصٍ يخلع سنه، فما بالك بمعاناة شخصٍ تخرج روحه.»

قلتُ له: «ليس كل مرض دليلًا على الموت. إذا أردت؛ فإننا نستدعي الطبيب ليعالجك.»

لم يرد استدعاء الطبيب وقال: «هيهات! إنّ المرءَ مشغولٌ بتزيين القصر، بينما أساس القصر يتداعى.»

عندما أنهيتُ عملي عدتُ إلى المسجد إلى جوار أصدقائي. وقصصت عليهم ما رأيت.

ضحك أحد العلماء الذي استمعوا لي ضحكةً خفيفة. فقلت له بأسلوب لطيف:

«الكهل يُخرج في الروح وأنت جالسٌ وتضحك.»

قال مُوضِّحًا: «لقد تذكّرتُ حديثي مع عجوز آخر وكنتُ أضحك عليه. كانت منازلنا قريبة من بعضنا البعض. وكان يعيش بمفرده منذ سنوات في منزله الجميل والكبير مثل القصر. فبعد وفاة زوجته لم يتزوج مرةً أخرى.

ذات يوم سألته: لماذا لم تتزوج؟.

قال: لأنني لا أريد أن أعيش مع زوجة عجوز.

قلتُ له: أنت تمتلك مالًا، ويمكنك اتخاذ زوجة شابة.

قال: يا أخي، أنا لا أريد امرأة عجوزًا بالرغم من أنني عجوز، فكيف ستحب امرأةٌ شابة عجوزًا!

العقل في يد النفس مثل الرجل الضعيف بجانب امرأة قوية.

استمعنا إلى هذه المزحة بابتسامة. كما كان إمام المسجد السابق موجودًا بيننا. كان رجلًا طاعنًا في السن كثيرًا. فشارك في الحديث وروى مغامرةً زوجيةً مَرَّ بها:

«بعد وفاة زوجتي بقيت وحيدًا. بمساعدة زوجة صديقي وجدتُ فتاةً وتزوَّجت. كانت شابة جدًا بالنسبة لي.

كنتُ أبذل قصارى جهدي لإسعادها، مُحاولًا ألا أُشعرها بفارق السن.

زيَّنت المنزل بالورود وزيَّنت معصمها ورقبتها بالحُلي. كل ليلة كنتُ أروي القصص التي تستمتع بها.

ذات ليلة قلتُ لها: «يا لكِ من فتاة محظوظة لأنك حظيت برجل مثلي مُحنَّك وصاحب خبرة ويعرف حق الصداقة وذي فطرة رائعة وعذب اللسان ورحيم. حتى لو جرحتني لن أجرحك. إذا كان غذاؤك شكر فلن أتردد في التضحية بحياتي من أجل توفيره. من الجيد أنك لم تسقطي في يد شاب مُعجب بنفسه، ضعيف الفكر، عنيد، مُتقلب المزاج، يدخل في مزاج مختلف كل يوم، وينام في مكان مختلف كل ليلة، وجاهل. فالشباب مهما كانوا ناضرين وجذَّابين، فإنَّهم ليسوا أوفياء. إنَّهم مثل البلبل الحر، يبحثون عن وردة جديدة كل ليلة. أما كبار السن فإنَّهم حكماء ومُهذبين وصادقين وأوفياء.»

وهكذا على المنوال نفسه. قلتُ الكثير من الكلام المعسول. حتى ظننت أنني حصلت على قلبها وأسَرتُها بكلامي.

أخرجتْ الآهات من صميم فؤادها وقالت:

«إنك تحدَّثت كثيرًا. لقد وضعتهم جميعًا في كفة ميزان واحدة، ثم وضعتُ كلمة سمعتها من جَدَّتي في الكفة الأخرى، فرجحت كفة جَدَّتي.»

«ماذا قالت جدَّتك؟»

قالت: «نوم الفتاة الشابة بجوار سهم أفضل من نومها بجوار رجل عجوز.»

خلاصة القول؛ لم أتمكن من الانسجام مع المرأة وانفصلنا. ومن بعدي زوّجوها لشاب سيئ الخلق وعديم الأدب ومُفلس وجاهل وفظ وغليظ ودميم وسافل.

سمعتُ أنّ المرأة تتجرع منه كل أنواع العذاب، لكنها لا تشتكي، إنّها تتحمل كل القسوة.

كلما جلتُ بخاطرها تشكر الله وتقول: «الحمد لله أنـني تخلصت من ذلك العذاب، لقد نلت النعمة.» وتردد الأبيات تلك على من يأتيها:

أعلم أنك فظٌ يا حبيبي، لكنني راضية.

لأنّ وجهك الجميل يجعلني لكلّ آلامي ناسية.

أفضّل أن أتعذب معك في جهنم.

على أن أكون مع من أكرهه في الجنة أنعم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب على المرء أن يتمنى الأفضل لنفسه، لا أن يتمنى ما ترغبه أهواؤه.

انضممتُ إلى المحادثة بسرد خاطرتين من خواطري. الأولى كانت عن جارٍ فقير لي.

كان لجاري هذا فتيات ذوات أوجه ملائكية وملامح جميلة. لكنه كان يريد أن يُرزق بصبيٍ أيضًا. ووصلت رغبته إلى حدّ المرض.

ثم حَمَلت زوجته. فنَذَرَ جاري الكثير من النذور وأخذ يصلي حتى يجيء المولود صبيًا.

كان يقول: "إذا رزقني الله صبيًا، سوف أحسن إلى الفقراء بأي شيءٍ، بخلاف العباءة التي على ظهري."

هكذا القدر، لقد وضعت زوجته صبيًا. وفرح جاري بهذا أشد الفرح. ولكي يُوفي بنذره، أهدى الهدايا وأقام الولائم وأطعم الجياع.

غادرتُ مسقط رأسي بعد هذا الحدث مباشرةً ولم أتمكن من العودة فترة طويلة. لقد مرت سنوات منذ ذلك الحين.

وعند العودة من السفر، سألتُ عن جاري. قلتُ: "كيف حاله، وأين هو؟"

قالوا: "إنّه في السجن. يتألم ويُعاني."

قلتُ: "لماذا أُلقي في السجن؟ ماذا فعل؟"

"لم يفعل أي شيء. لكن ابنه الفاسد المُتسكع الأهوج شرب الخمر وسَكِر. ثم تشاجر مع شخص ما وسَفَك دمه. فهرب من المدينة حتى لا يتم إلقاء القبض عليه. عندئذٍ قبض الضباط على والده، وأخذوه للمحاكمة. وألقوه في السجن قائلين: لقد أخفيته، ثم ساعدته على الهرب."

شعرتُ بالحزن وقلتُ لنفسي: "هذا يعني أنّ الرجل المسكين كان يدعي على نفسه."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما ورث أحد جيراني مبلغًا ضخمًا من أعمامه. فترك حياته القديمة جانبًا، واتبع هواه وغرق في الآثام بالمال الذي معه.

ذات يوم أردت أن أنصحه، فقلتُ له: "ليس لديك مصدر دخل دائم. الأموال التي معك محدودة. إذا أنفقت بهذه الطريقة سوف تنفد أموالك، ويصبح وضعك أسوأ من ذي قبل."

لم تؤثّر به نصيحتي. وقال لي: "لماذا عليّ أن أتخلّى عن مُتعي الحالية من أجل مشكلة مستقبلية؟ ما دامت الفرصة في يدي فإنني أريد أن أستمتع وأنعم."

أدركتُ أنّه لن يكترث إلا لما يُمليه عليه هواه، ولن تؤثّر كلماتي الساخنة في حديده البارد، فتخليت عن النصيحة. كما أنني توقفت عن إلقاء تحية الصباح عليه.

يقول أهل الحكمة: "قدّم النصيحة، فإذا استمعوا لها كان بها، وإن لم يكن فما شأنك!"

بعد فترة، وجدتُ أنّه ليس لديه أموالًا ولا ممتلكات. كما أنّ أصدقاءه رحلوا من حوله. وكان يشحذ مرتديًا ثوبًا مُرقعًا.

هذا تمامًا ما قلته أثناء تقديم النصيحة. لكنني لم أذهب إليه وأقول "لقد قلتُ لك."

فإنّه لا يليق بصاحب المروءة أن يفتح جرح قلب الشخص المُبتلى، ويرش عليه الملح والفلفل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا كنت لا تريد أن تُصاب بالكرب، فلا تعلق قلبك بالأشياء الفانية.

جاء الربيع. وكانت البلابل تغني الأهازيج على منابر الأشجار أمام وجوه الورود الجميلة.

ذهبتُ إلى السوق لزيارة صديقي التاجر. وعندما رآني، قال: "لو لم تأتِ، لكنتُ أتيتُ إليك بعد قليل. فقط كنتُ أبحث عن شخصٍ أترك له المحل أمانة حتى أعود."

قلتُ: "خير إن شاء الله."

"لقد جاءت قافلة من أذربيجان. وقائد القافلة سأل عنك. أعتقد أنّه أحضر خطابًا لك."

"أين هو الآن يا تُرى؟"

قال: "ربما في متجر صديقي بائع الأقمشة. سأذهب وألقي نظرة، إذا كان هناك سأحضره وآتي."

"بعد وقت قصير جاء ومعه الرجل. لقد كان قائد القافلة. تعرفنا. ثم أعطاني الخطاب. ففتحته وقرأته من فوري.

كان من صديقٍ حميم لي عرفته منذ سنوات دراستي. كان يُدرّس في مدرسة على ساحل بحر قزوين. لقد سمع طلابه عن اسمي. كما قرأوا بعض قصائدي. فأصروا على الذهاب إلى معلميهم من أجل دعوتي. ولم يستطع صديقي تحمُّل إصرارهم، عندها كَتب لي رسالة.

عندما أخبرتهم ما ورد في الرسالة، قال لي قائد القافلة: "إذا كنتَ تريد الذهاب، يُمكنك الانضمام إلى قافلتنا. سنعود إلى هناك بعد أن نبيع بضائعنا."

بعد التفكير فترة قصيرة، قررتُ قبول الدعوة وأخبرتُ قائد القافلة بهذا.

بعد ثلاثة أيام التقينا وانطلقنا في طريقنا. وبعد رحلة طويلة ومُرهقة، وصلنا إلى المدرسة الموجودة بالقرب من ساحل بحر قزوين.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كان صديقي سعيدًا جدًا برؤيتي أمامه. وجعلني أتعرف على طلابه. ثم أعطيت درسًا صغيرًا في البلاغة بنية التبرك. وسعِدَ الطلاب كثيرًا بهذا. لم أبق طويلاً وعدت إلى غرفتي لأستريح.

بعد غروب الشمس مباشرةً، سمعت طرقًا على بابي. نظرت فإذا بخمسة طلاب.

قالوا: "سيدي، نعتذر عن إزعاجك في هذه الساعة. لكننا نرغب في التحدث معك قليلًا. من فضلك لا تردنا."

قلت: "حسنًا، لنتحدث. لكن ليس هنا. دعونا نذهب إلى ساحل بحر قزوين."

قالوا: "حسنًا."

ذهبنا معًا. حيث وجدنا عُشبًا هادئًا على الساحل وجلسنا. لم يكن هناك صوت سوى صوت الأمواج المتلاطمة على الشاطئ وزقزقة طيور الليل.

سألت عن أسمائهم، فأخبروني. كانت أسماؤهم: حيدر، كريم، معروف، بنيامين ويونس.

قال حيدر: "يا سيدي، إنّ أرباب الفن هم أهل القلوب. ونحن على يقين من أنك أيضًا هكذا. وأنك ستتفهمنا. لقد وقعنا في مشكلة."

سألت: "ما هي مشكلتكم؟"

"لقد وقعنا في الحب. ونحترق بنار الشوق. لكننا طلاب. ليس بوسعنا شيئًا لنفعله. ولا نعرف ماذا نفعل. نحتاج إلى شخصٍ يستمع لنا ويفهمنا ويُرشدنا. أنت تفهم هذه الأمور. حقًا سيكون لُطفًا عظيمًا أن تستمع إلينا."

استمعتُ إلى كلامهم بابتسامةٍ ثم قلت: "نعم، كما يعرف العربُ العربية، سعدي يعرف معنى الحب."

ابتسم حيدر وقال: "هناك فرقٌ بين أن تعيش شيئًا ما وأن تعرفه، أليس كذلك يا سيدي؟"

أحببتُ ذكاءَ الشاب وتفكيره. فقلتُ: "نعم إنّه كذلك. لكن كلًا من العيش والمعرفة لهما معنًى أكبر. هل تريدون أن أحكي لكم قصةً مجهولةً عن ليلى والمجنون؟"

قالوا: "نعم، من فضلك."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل يستوي من يمسك الملح بيده، بمن يدسه في الجرح!

كان الحب بين ليلى والمجنون أسطوريًا. حتى أنّ أحد ملوك العرب سمع القصة وتساءل عما قبلها وبعدها.

كيف كانت ليلى يا ثُرى؟ وما الميزة التي انفردت بها والتي جعلت الشاب يسقط في نيران الفتنة وأدت إلى جنونه؟

قال الملك لمعاونه: "ستجد ذلك الرجل المدعو بالمجنون وستحضره لي! لا أريد أي عذر."

انطلق المعاون ورجاله من فورهم. فوجدوا المجنون في واحةٍ لا يطير بها طائر ولا تمر عليها قافلة، فأخذوه وأحضروه أمام الملك.

كانت ملابسه في حالة مُتهالكة. وكان شعر لحيته مُتشابكًا في بعضه البعض.

فعاب عليه الملك قائلًا: "ذهبتَ إلى الصحارى بسبب فتاة. وعشت بعيدًا عن الناس، مع الحيوانات."

الشخص الذي كان اسمه الحقيقي قيس، والذي كان يُدعى بالـ 'مجنون' بمعنى "أصابته عِلّة الجنون، أو جُنّ"، كان شاعرًا. لذا قام بالرد على كلام الملك بقصيدة.

بسبب حُبي الذي أكنّه لكِ لَامَ عليّ الكثيرون.

ليت وجهك الجميل يظهر مَرّةً حتى لعذري يفهمون.

أنا متأكد أنّهم سيقطعون أيديهم مثل نساء مصر اللاتي

قطّعن أيديهن، بدلًا من الفاكهة عند رؤية حُسنِ يوسف البادي.

زاد فضول الملك أكثر. ما نوع الجمال الذي تمتلكه ليلى يا ثُرى؟ الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك كانت رؤيتها.

فأمر معاونه بإيجاد الفتاة وإحضارها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحثوا لأيام. وأخيرًا، وجدوها في خيمة البدو وأحضروها إلى القصر. ثم أتوا بها أمام الملك. حيث كان المجنون هناك أيضًا.

نظر الملك إلى الفتاة مرارًا وتكرارًا، أولاً من بعيد، ثم عن قُرب. كانت ليلى سمراء، ضعيفة، وهزيلة.

فلم يرى الملك أي جمالٍ أسطوريٍ فيها. ثم فكّر قائلًا: "إنّ الجواري الذين أملكهم، أجمل منها بكثير."

أحس المجنون بفراسته رأي الملك السلبي في ليلى. فقال: "أيها الملك! نظرتَ إلى ليلى بأم عينيك ولم ترَ الجمال فيها. لكي ترى ما أراه، يجب عليك أن تنظر إليها بعيني أنا."

قال الملك بلهجةٍ تمزج بين الفضول والحدّة: "ماذا يعني ذلك؟". عندئذٍ قال المجنون بيتيّ شِعرٍ.

أرني شخصًا يُعاني من مشكلتي نفسها وسوف نتحدث ليلًا ونهارًا.

فالحطب يحترق أفضل حين يكون اثنان مُتجاورين معًا.

لا تقارني بمن لا يتجرع ألم الشوقِ.

فهل يستوي من يمسك الملح بيده بمن يدسه في الجرحِ.

نالت الحكاية إعجاب الشباب. حتى أنّ كريم كان يكتب ما أقوله في دفتره. ثم قال بصوت راجٍ: "من فضلك قُل لنا قصصًا أخرى."

بهذا فهمتُ ما يريدون مني. فبدأتُ في سرد قصص الحب التي تتبادر إلى ذهني الواحدة تلو الأخرى.

كان لي صديقٌ تاجرٌ في مدينة البصرة. ذهبتُ لزيارته ذات يوم وأصبحتُ ضيفه مدة ثلاثة أيام.

وكان للتاجر خادمة. كانت جميلة بشكل فريد لا يُضاهيه أحد، لكنها مُتغطرسة ووقحة للغاية.

لم تكن تفعل ما تُأمر به، وترد على التاجر بلغةٍ وقحة، كما أنّها كانت تتصرف كما تشاء.

لقد اندهشتُ من هذا الموقف وسألتُ التاجر عن السبب. قلتُ: "لماذا تحتفظ بهذا الفظّة معك؟".

تأوه التاجر من عميق فؤاده، وقال: "يا صديقي، إذا وقعت في حب إحدى الجميلات وصرّحت بحبك لها فلا يجب أن تتوقع منها الخدمة بعد الآن. من قبل كنتُ أنا السيد، وهي الخادمة. أما الآن فأصبحتُ هي السيدة، وأنا الخادم. أنا راضٍ بأي حال حتى لا تذهب."

هكذا هو الحب الجنوني. يُسبّب الكثير من المتاعب للناس. كما رأيتُ هذا في جندي وقع في حب ابنة السلطان.

قَدّمَ العديد من العُقلاء النُصح لهذا الجندي. فقالوا له: "أنت على طريق مُهلك. أنت مثل أحد المنكوبين الذي سقط في النهر وجرفه التيار. بهذا الشكل، سوف تموت."، لكنه لم يكن يستمع إليهم.

كان يقول: "حتى لو انتهى الأمر بالموت، فلن أتخلّى عنها. إما أن اجتمع بها أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن أموت في الطريق. هذا ما يفعله العاشق الحقيقي. إنني ميت بالفعل بدونها. لا يمكنهم قتل شخص ميت مرة أخرى."

أخيرًا، عرفت الفتاة أيضًا بحب الشاب الأسطوري. وذات يوم خرجت في نزهة مع المربية. فأرسلت للشاب خبزًا عن طريق الخادمة.

قالت: "سأكون تحت شجرة الصّنّار في الحديقة الخاصة. تعال وقابلني."

بمُجرّد أن تلقّى الشاب الخبر ذهب. عندما رأى الفتاة عن قُرب، كان مثل الذي انقطع نَفَسُه. أراد أن يقول شيئًا، لكن صوته لم يخرج.

قالت الفتاة: "سمعتُ عن حبك لي وتأثرتُ. فانتابني الفضول حول من أنت وما عملك، لذا أردت التعرف إليك عن قُرب. لقد خاطرتُ بكل شيء وجئت إلى هنا. لماذا أنت صامت؟ لماذا لا تتحدث معي؟"

أراد الشاب أن يقول كلمات جميلة بالطريقة التي حلم بها مرات كثيرة، حاول إجبار نفسه لكنه لم يستطع الكلام. لقد تخلّى عنه صوته وكلماته عندما كان في حاجةٍ ماسة إليهم.

بدأ قلبه ينبض بشكل أسرع. واحمر وجهه. وتثاقلت أنفاسه. ثم أخيرًا، أطلق صرخةً مدوية وأسلم روحه في الحال.

أثّرت قصة الجندي الشاب على الطلاب. صمتنا، واستمر صمتنا فترةً طويلة. حيث كان الجميع سابحًا في عالمه الخاص.

كسر يونس الصمت وقال: "لقد أخبرتنا كثيرًا عن الآخرين، سيكون من الجيد أن تخبرنا قليلاً عن تجاربك الخاصة."

أعادني هذا الطلب إلى سنوات شبابي. فهناك أيضًا مكان مُخصص للمشاعر في ذاكرة الإنسان. موجود في أعمق مكان.

قلتُ للشباب: "لم يحالفني الحظ في هذا الأمر. لقد انتهت كل قصص حبي بخيبة الأمل. ولكن بما أنكم تتساءلون، سوف أحكي لكم."

لا تتمايلي أمامي.. لقد تلاشت رغبتي بك!

كان الظلام قد بدأ بالحلول. كنتُ وحدي، أقرأ كتابًا. أما حبيبتي "نازندا" فكانت موجودة في خيالي فقط. كنتُ أرى وجهها الجميل في كل صفحة.

كان والدها تاجرًا ثريًا. وكانت تعيش في منزل كبير وجميل مثل القصر. وفي الصيف كانت تذهب إلى البيت الصيفي، لذا كانت أحيانًا لا تجيء لأشهرٍ عِدّة.

لم نرى بعضنا البعض منذ أسابيع. وبينما كان خيالها يواسيني، دخلت حبيبتي فجأةً إلى الغرفة. اندهشتُ. وانتفضت هكذا من مكاني لدرجة أنني أثرت الهواء فأطفأت شمعتي.

عندما رأت هذا عاتبتني. قالت: "يا سعدي! لقد أطفأت الشمعة عندما رأيتني، ألا تريد أن ترى وجهي؟ ألم تشتاق إليّ أبدًا؟".

فأجبتها بروح الدعابة: "حبيبتي نازندا، عندما دخلتِ من الباب ظننت أن الشمس قد أشرقت، لهذا أطفأتُ الشمعة."

ضحكتُ على تلك الكلمات. ثم قالت: "لستُ متأكدة مما إذا كنتَ عاشقًا حقًا أم أنك تتصرف وكأنك عاشق من أجل أن تتحدّث بالكلام المعسول هكذا."

قلتُ: "هل يجب لكي أثبت حبي لكِ الذي لا يُوصف أن نركب السفينة نفسها، ثم تغرق ونغرق في البحر معًا؟"

عبس وجهها وقطبت جبينها ثم نظرت إليّ. وقالت: "لا تتحدّث بشكل غامض، أي نوع من السفن تلك وما علاقتها بنا؟"

" كان هناك شابًا مُسافرًا صعد على متن السفينة. وكانت حبيبته أيضًا على متن السفينة نفسها. وبالرغم من عدم قدرته على رؤيتها أو التحدّث إليها، إلا أنّ تواجدها في المكان نفسه ورؤيتها للمناظر الطبيعية نفسها جعل الشاب سعيدًا. ثم تعرضت السفينة لعاصفة وغرق ركّابها في البحر. أتى الصياد، الذي شاهد الحادث، بقاربه إلى موقع الحطام. حيث أراد أن يأخذ بيد الشاب ويسحبه إلى القارب. ولكن الشاب قال:

دعني، أنقذ حبيبتي. انظر، إنها تنتظر هناك على بُعد مسافة قصيرة تُمسك باللوح الخشبي.. فترك البحّار الشاب وأنقذ الفتاة."

قالت حبيبتي التي تأثرت بالقصة: "ماذا يعني هذا، هل إذا وقع حادث ستنسى نفسك وتنقذني؟"

قلتُ: "نعم، بالطبع. إذا كنتِ تحبينني قليلاً وتثقين بي حقًا، سوف تُصدّقين كلامي."

لقد كانت "نازندا" تحب أن تجعلني أعاني، ففي ذات يوم جاءت إلى المكان، الذي قطعنا فيه عهدنا سويًا، لمقابلتي مع صديقة لها تُدعَى "فريدة". وكانت تعلم جيدًا أنّ هذا سوف يُزعجني.

قلتُ: "أنتِ لم تأتِ لمقابلتي، بل للشجار."

تعالت قهقهاتها على كلامي، وقالت: "يا سعدي! أنا شمعة المجلس، وأنت فراشة من الفراشات التي تطير حولي. لا يمكنني التُعلّق بك."

ومرت شهور منذ لقائنا هذا غير السّار. لم أستطع رؤيتها أبدًا، كنتُ أتساءل ماذا حدث يا تُرى؟

وأخيرًا حصلت على معلومات عنها. اتضح أنّها ذهبت إلى أحد أقاربها بعيدًا، حتى دون أن تخبرني.

لكن هذه المرة لم تأتِ لسنوات. احترقتُ بنار الفراق والشوق. ولم أكن أعرف حتى أين كانت.

أخيرًا عادت، ولولا أنّ صديقي، الذي كان يعرف كم عانيت من آلام الفراق، جاء إليّ وأخبرني، لما كان سيصبح لديّ خبر بذلك.

أرسلت إليّ خبرًا قائلة تعال إلى المكان الفلاني. فذهبت من فوري. التقينا وتقابلنا. لكن هيهات! لم يعد هناك أي أثر لحالها القديم. كان شعرها الكثيف يتأرجح أمام موجات الرياح، وخداها اللذان يُحاكيان أزهار اللوز أصبحا باهتين، وعيناها اللتان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانتا تلمعان انطفأتا.

كانت تأمل أن أتحمل دلالها، وأن أتغافل عن أخطائها، وأن أكون من المعجبين بها.

لكن نار حبي تحوّلت إلى رماد. لقد فهمتُ هذا بشكلٍ أفضل عندما التقينا.

ولما لم تجد مني ما كانت تأمله، بدأت تُوبخني بشكلٍ سيئ. لقد تضاءل جمالها، لكن لسانها الحاد بالفعل ازداد سوءًا. لم أستطع تحمُّل كلماتها المُهينة فبدأتُ بإلقاء الشعر.

"يا وردة! لقد اصفرت أوراقكِ، فكُفي عن التّعالي!

يا صاحبة الجمال!

لا تضعي قِدرِكِ على موقدي، لقد انطفأ لهيب ناري!

يا صاحبة الدلال!

لا تتمايلي أمامي.. لقد تلاشت رغبتي بك!"

تبين أن لُلبي كان أنت.

كنتُ أذهب إلى المدرسة أثناء النهار وأتحدّث مع صديقي. وبناءً على طلبه، كنتُ أحيانًا أعطي دروسًا في الحكمة والبلاغة للطلاب.

بعد العشاء، كنتُ ألتقي الشباب العاشقين وأتحدّث معهم على ساحل بحر قزوين. قررتُ أن أخبرهم عن حادثةٍ أليمةٍ مررت بها.

كانت الشام واحدة من مراكز العلم. كنتُ ألتقي كل يوم بمعارفي من أهل العلم والحكمة، ونُجري مناقشاتٍ في العلم.

ثم بدأتُ أشعر بضيقٍ غريبٍ داخلي. لقد مللت من كل شيء. وكانت الأماكن المزدحمة تخنقني. فكنت أفكّر في السبب، لكني لم أجده. كنتُ أريد أن أبقى بمفردي دائمًا.

غادرتُ المدينة دون أن أخبر أحدًا بأي شيء، وذهبتُ إلى الصحارى والبادية. تجوّلتُ أيامًا بلا هدف أو مقصد.

ثم صادفتُ بعض الجنود الصليبيين. فأسروني وأخذوني إلى طرابلس. وجعلوني أحفر خندقًا مع شخصٍ يهودي.

كنتُ أقول لنفسي، "كنتُ أحاول الهرب من الناس فوقعت بين الضباع. من الأفضل أن أكون مقيدًا بالأغلال في السجن مع الأصدقاء على أن أستمتع في الحديقة مع الغرباء."

رآني رجل من أعيان حلب وتعرّف عليّ أثناء مروري من المكان الذي كنا نحفر به الخندق.

قال لي بدهشة وقلق: "يا سعدي! ما هذه الحالة؟"

أخبرته بما حلّ بي. فتألم لحالي. وأنقذني من أيدي الفرنجة بإعطائهم عشر عملات ذهبية وأخذني إلى حلب.

كانت لديه ابنة، زوّجها لي بمئة قطعة ذهبية كمَهرٍ لها.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ثم تبيّن لي أنّ الفتاة كانت سيئة الخُلق. وبدأت بالتذمُر.

كانت تتطاول عليّ وتقول ألفاظًا بذيئة. وكانت إهاناتها متواصلة لا تتوقف.

لم أكن سعيدًا. فكما يقولون دائمًا؛ إنّ الشخص الذي لديه في منزله زوجة سيئة الخُلق وسريعة الغضب وذات لسان حاد سيُعاني من عذاب جهنم في الدنيا.

قالت لي ذات مرة: "ألستَ أنت الرجل الذي أنقذه أبي من أسرِ الفرنجة بعشرة عُملات ذهبية!"

وردًا على ذلك، قلتُ لها: "نعم ، لقد أنقذني من أسرِ الفرنجة بعشرة عُملات ذهبية، وجعلِك أنتِ أسيرة بمئةِ عُملةٍ ذهبية! أنا مثل الخروف في القصة."

"لا تتحاذق عليّ! أي قصة؟"

"ذات يوم أنقذ رجلٌ ما خروفًا من فم الذئب وأخذه إلى المنزل. ووضعه على الأرض ليذبحه. فتكلم الخروف وقال: 'اتّضح أنّ ذئبي كان أنت'. هذا هو حالنا نحن أيضًا".

كنتُ أبحث عن طريقةٍ للتخلص من هذا الأسر، لكني لم أجد. ولم أستطع المغادرة دون أن أعطي خبزًا لهم. كان يجب عليّ سداد ديني لوالد الفتاة، لكنني مُعدم.

في النهاية، قررتُ أن أكتب رسالةً إلى صديقي القديم أيمن.

وسرعان ما أرسل رجلاً، ودفعنا الدين، أصبحت حُرًا، ونجوتُ والحمد لله.

من يتجاهل نصيحة الحكماء، يريد أن يستمع إلى ثرّهات الناس.

جاء الليل. قررتُ أن أحكي قصةً أخرى للشباب الذين استمعوا إليّ بحماس وأن أغلق باب خزانة الكلام.

كان هناك أشخاص يضعون ببغاء وغراب في القفص نفسه. كان الاثنان مجبورين على العيش معًا. انزعج الببغاء من صوت الغراب وشكله، وشعر بالحزن، وكان يقول في نفسه: "يا له من وجه بغيض، وشكل غير مُحبب، يا له من مظهر قذر، وهيئة بشعة! أيها الغراب المشئوم، أتمنى لو كانت المسافة بيني وبينك كالمسافة بين المشرق والمغرب. فبمجرّد أن تستيقظ في الصباح يُظلم يوم كل من يرى وجهك المشئوم ويأتي الليل. أنت بحاجة إلى شيء مشئوم مثلك يكون بجوارك، ولكن أين تجد مثل هذا الشيء؟"

لكن أغرب ما في الأمر هو أنّ الغراب كان مُنزعجًا كذلك بحديث وصوت الببغاء. كان يقول "لا حول ولا قوة إلا بالله" بدون توقف، حزينًا بسبب هذا الحال الذي وصل إليه، وكان يقول:

"يا له من نصيب تعيس، يا له من حظ سيئ، يا له من زمان غدّار! ما كان يليق بي هو أن أتجوّل على سور حديقة مع غراب مثلي. من يدري ما الذنب الذي اقترفته لكي أوضع في القفص نفسه مع ذلك الثرثار الذي يُعدّ عقوبة مسبقة! أيها الببغاء الأحمق! إذا قاموا بنقش صورتك على الحائط، فلن يقترب منها أحد، وإذا كان مكانك هو الجنة فإنّ الآخرين سيريدون الذهاب إلى الجحيم!"

بعد فترة من الصمت، سألتُ الشباب: "ما الذي فهمتموه من هذه القصة التمثيلية، ما هو درس العبرة الذي استخلصتموه منها؟"

قال بنيامين: "إنّها حكاية تُعبّر عن مشاعر الأشخاص الذين لا يشبهون بعضهم البعض ولكن عليهم العيش معًا."

وأوضح معروف: "الأمر أشبه بوجود شخص صوفي وسِكّير في المكان نفسه، مما يُسبّب لكلاهما الانزعاج والملل."

قلتُ: "نعم، كلما اضطرب الحال بين العالِم والجهلة، ازداد الحال اضطرابًا بين الجاهل والعلماء."، ثم رويت لهم قصة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عقلٌ لا يكفي لفهم ما بداخل الإنسان.

ذات يوم كان صوفي يمشي وحده في الصحراء. وكان يشعر بالجوع والعطش الشديد. وكان الجو مُظلمًا وباردًا.

كان مُتفائلاً عندما رأى ضوءًا هناك وذهب إليه. لكن عندما دخل ماذا رأى! كان هناك الكثير من السُكارى والنساء يلتفون حولهم. واتضح أنّها كانت حانة.

جلس في زاويةٍ يُفكّر: "سأطعم معدتي، وأشرب الماء، ثم أذهب في طريقي". كان وجهه عابسًا. وكان ينظر حوله بغضبٍ وكراهية.

أتت إليه إحدى النساء وقالت له : "أيها الصوفي، يا من تجلس عابس الوجه! كما نحن مكروهون بالنسبة لك فأنت أيضًا مكروه بالنسبة لنا. أنت تبدو مثل الحطب الجاف بين زهور التوليب والورود. أنت بارد مثل رياح الشتاء. ومُتجمّد مثل الجليد."

تنهد الصوفي وقال بداخله "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ولم يُجب المرأة. ولكن بدلًا من أن تنسل وتذهب، كانت تقول كل ما يخطر ببالها.

قال الصوفي: "هل تعرفين قصة العريس والحماة؟ أنا متأكد من أنكِ لا تعرفينها. دعيني أخبرك بها."

"كان هناك رجل لديه زوجة جميلة جدًا. لكن هذا هو النصيب، لقد ماتت المرأة في ريعان شبابها. اضطر الرجل الذي فَقَدَ زوجته أن يؤوي حماته المشاكسة، العجوز والمجنونة، في منزله بسبب المهر. وكانت هذه العجوز المشئومة عبوسة الوجه تُزعجه صباحًا ومساءً، مما كان يدفع الرجل إلى الغضب كثيرًا. أتى أحد أصدقائه القُدامى لزيارته وقال له سائلًا 'افترقت عن زوجتك الحبيبة، كيف حالك الآن؟'. فأجاب الرجل: 'إنني لا أجد صعوبة في عدم رؤية زوجتي أكثر من رؤية حماتي. لقد ذبلت الوردة، وبقيت الشوكة. لقد سُلِبَ الكنز، وبقي الثعبان في مكانه.'"

عندما أنهى الصوفي قصته، بقيت المرأة صامتةً فترةً من الزمن، ثم نظرت إلى الأرض وفجأةً أسقطت القدح من يديها وركعت على الأرض وبدأت تبكي.

"أيها الصوفي! من يدري كم تحتقرني. في الأصل الجميع يحتقرني. ينظرون إليّ ثم يشكرون الله على حالهم. ينظرون إليّ ثم يعتبرون أنفسهم معصومين.

لا يخطر ببال أحد أن يسأل لماذا أصبحت بهذه الحالة، لا أحد يُفكّر ما إذا كانت هناك طريقة لإنقاذ هذه البائسة.

نعم، أنا قذرة. نعم، أنا آثمة. نعم، أنا لا أستطيع الوفاء بالوعود التي أعطيتها لربي. ولكن هل تعرف لماذا؟ هل تعرف كيف وصلت إلى هذه الحالة؟

ماذا بإمكان المرء أن يفعل إذا لم يُحالفه الحظ؟ كنتُ سيئة الحظ. وسقطتُ مرةً واحدة، أنا حقًا أعاني.

لكن لا تُفكّر في أني ميئوس مِني تمامًا. فأنا لم أنسى ربي قط. رحمته لا تنتهي، ولا يرد من يلجأ إلى بابه. وهو رب المُذنبين مثلي."

بعد أن رويت هذه الحادثة، قلتُ: "دقيقة واحدة تكفي لفهم ظاهر الإنسان، لكن عُمرًا لا يكفي لفهم ما بداخله."

الفراق مؤقت، والوصال مؤكّد.

أستيقظ كل ليلة في ساعةٍ مُحدّدة، وأضيء قنديل النور، الدواة في يدي، والدفتر أمامي، مُنتظرًا أن تنعكس هيئة شيخي على الجدار.

بفضل ربي، كانت هيئة شيخي تنعكس على جدار غرفتي كل ليلة، فيخبرني بذكرياته وقصصه، وكنتُ أكتبها أنا أيضًا في دفتري، ولم أحرم أبدًا طوال شهور.

إنّ رؤية وجهه المضيء على جدار غرفتي والاستماع إلى كلماته، الأجمل من ألحان البلبل، تُنسيني أحزاني وتملأ روحي بالطمأنينة والسعادة.

لا يستطيع المرء أن يعرف كيف وبأي وسيلة سوف تتجلّى له الرحمة. لكنه إذا أصبح عاجزًا تمامًا، وأدرك فقره واعترف بذلك، فإنّ لُطف وكرم الرحمن تأتي لنجدته.

في هذه الليلة أيضًا استيقظت في الوقت نفسه، توضأت، وصليت ركعتين، ثم جلستُ على مكتبي، وفي يدي الدواة والدفتر أمامي وانتظرت. عندما انعكست صورة شيخي على الجدار، قرّرتُ أن أطرح سؤالًا كان يلحّ عليّ فترةً طويلة.

قلتُ: "يا سيدي ، أنا أراك على جداري كل ليلة، كيف يكون هذا؟".

"يا بُني يُسمّون هذا "التمثّل". وهو أحد القوانين الإلهية. ألست ترى صورتك عندما تنظر في المرآة؟"

"أراها."

"هذا هو التمثّل؛ أعني الظهور كمِثال. انعكاس هيئة شخص ميت في حُلمك هو أيضًا تمثّل آخر. هناك دلائل على هذا في كتابنا."

"ما هي هذه الدلائل؟"

"على سبيل المثال، هناك آية في قصة سيدنا يوسف. قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} (سورة يوسف - 24).

ومعنى كلمة "بُرهان" هنا صورة والده يعقوب (عليه السلام) المنعكسة على

الحائط. فلما رآه يوسف، لم يَمِل إلى الحرام. يعتبر حدث جلب العرش في قصة سيدنا سليمان (عليه السلام) أحد أكثر الأمثلة تقدُّمًا في قانون التمثُّل. بمعجزة، تم نقل عرش بلقيس الموجود في اليمن إلى قصر سليمان في دمشق. تُعبِّر هذه الأحداث المعجزة بأسلوب مخفي أنّه من الممكن نقل الصور والأصوات من مكانٍ إلى آخر. وهكذا، بفضل قانون ربنا "التمثُّل"، ينعكس صوتي وصورتي كذلك على الحائط الخاص بك."

"تمام يا أستاذي، فهمتُ قليلًا. حسنًا، أين أنت الآن؟"

"أنا على مسافة بين الدنيا والآخرة. في عالم يُسمَّى البرزخ. في هذا العالم تتجمع أرواح جميع الذين ماتوا في أعمارهم المحدَّدة. الناس هنا ليس لديهم أجساد حقيقية، تعيش أرواحهم في جسد لطيف. ولهذا أنت ترى الأشخاص هكذا في أحلامك. فالرؤيا مِثال صغير لهذا العالم."

"هل يمكن أن تنعكس كل الأرواح الموجودة في عالم البرزخ إلى عالمنا يا أستاذي؟ هل يسمحون بذلك؟"

"لا. انعكاسي هو فقط استثناء. يُسمح لبعض الأرواح من وقتٍ لآخر. ولقد تم استجابة أمنيتك الشديدة ونيتك الصادقة في دعائك، واستطعت أن تراني."

"حسنًا يا أستاذي، لقد فهمت. الآن اسمح لي أن أكمل تدوين قصصك وذكرياتك."

"يا بني، لقد أخبرتك بالكثير من القصص والذكريات. قلتُ كلمات تستحق أن تكون أقراطًا في الأذنين. هذا القَدر يكفي الآن. ربما سأخبرك مرةً أخرى في المستقبل."

"كما تريد يا أستاذي."

"ما قلته لك قد تسرَّب من حياتي الفانية. لقد ربطت لآلئ الحكمة في خيط الفن، وأضفت دواء النصيحة المُرّة إلى عسل النّعمة."

"أنا مُدرك يا أستاذي. يليق بكل شخص أن يكتب على الجدران وينقش على القبور. وأن يلقي الضوء على جوانب مختلفة من الحياة. أنا متأكد من أنّه سيكون

في المستقبل أشخاص بين الناس يعرفون قيمتهم."

"إن شاء الله يا بُني."

"من فضلك تعال مرةً أخرى يا أستاذي، لا تترك هذا الطالب الذي لا حول له ولا قوة."

"يا بُني، أود أن آتي أيضًا، لكني لا أعرف ما إذا كان بإمكاني المجيء أم لا. لا ينقطع الأمل من رحمة الله."

"أنا متفائل يا أستاذي. سوف أستيقظ في الوقت نفسه كل ليلة، وأضيء المصباح، وأنتظرك، وأصلي وأدعو ربي."

"حسنًا. إبق على الأمل. ولا تحزن. سيحدث ما يشاءه الله. ربما أنت أيضًا يمكنك أن تأتي إليّ. بالنسبة لنا، الفراق مُؤقَّت والوصال مُؤكَّد إن شاء الله."

كانت هذه الجُمَل ذات المعنى هي آخر كلمات أستاذي.

اختفت الصورة من على الجدار. وتُرِكْتُ وحدي في حجرتي.

لم أتحرَّك من مكاني حتى انطفأ القنديل. فكَّرتُ في ماضيّ وعمري وأحبائي.

سوف يستمر نهر دجلة في الجريان من بعدك.

دفتر عُمري أوشك على الانتهاء مثل الدفتر الموجود على مكتبي، وربما أكون في الصفحة الأخيرة الآن.

مرت ستة وستون عامًا منذ أن وَدّعتُ أحبائي وغادرتُ مسقط رأسي. شيراز، أرض الشُعَراء والكُتّاب، أصبحتْ الآن مُجرّد ذكرى ضبابية عالقة في الماضي.

لكن رماد الزمن لا يمكنه تغطية صورة وطني الجميل بالكامل في ذهني. ما زلتُ أشتاق إلى شيراز بورودها التي تفوح شوقًا وصوت البلبل الذي يشدو حزنًا.

أعلم أنني لن أتمكن من العودة مرةً أخرى، وحتى إن استطعت فعل ذلك، فلن أجد أحبائي هناك.

رياحُ الزمن التي تهب بلا توقف أخذتهم جميعًا إلى دار الخلود. عزائي الوحيد أنهم ينتظروني هناك.

أكرّرُ قول أستاذي مرارًا 'الفراق مُؤقّت، والوصال مُؤكّد'.

ومع ذلك، يوجد في قلبي حُزن الغُربة، مهما فعلت فإنّه لا يذهب. أنا في الحالة نفسها هذه الليلة كذلك. جلستُ وكتبتُ الشّعر بالرغم من أنّ هذا ليس من عادتي.

في الليل...

يَدُبُ حُزنُ الغربةِ في قلبي

في الليل...

نارُ الشوقِ تحرقُ قلبي

في الليل...

أبكي بشِدّةٍ ويتألمُ قلبي

وأصرخ قائلًا:

الله موجود!

الله حبيبي!

Telegram:@mbooks90

نعم، أنا أجد المواساة مع الله فقط. مع الله الموجود معي في كل مكان. إذا نسيته في مرةٍ ما، إذا لم أتذكّره، تحرقُ نيرانُ الفراق قلبي.

كان أستاذي سعدي يستيقظ في منتصف الليل ولا ينام حتى الفجر. بدأت هذه العادة معي أيضًا. أستيقظ فجأةً وأضيء القنديلَ وانتظر.

في إحدى هذه الليالي تكلمتُ مع ربي. بالرغم من أنني لا أسمعه، إلا أنّه يسمعني، أنا أعلم هذا، وأؤمن به.

أنا متأكد من أنّه يجيبني أيضًا.

ثم كتبتُ حوارًا في ظلال آية }ادعوني أستجب لكم{ (سورة غافر-60)

يا ربي! أنا أعلم، في ذلك اليوم العظيم، سوف تسألني أسئلةً تعلم إجابتها أفضل مني.

"هل آمنت بي؟"

"آمنتُ يا ربي".

"فيمَ أفنيتَ عمرك؟"

"علمت، وتحدثت، وكتبت، وفعلت."

"ماذا علمت، وماذا قلت، وماذا فعلت؟"

"علمتُ أقل من اللازم معرفته، لا أستطع أن أقول إني أعرف بما فيه الكفاية، أما أفعالي فكانت أقل من أقوالي."

"لماذا لم تعمل بما علمت؟"

"كما تعلم يا ربي، أردتُ ذلك لكني لم أستطع أن أجعل نفسي تصغي."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"وبأي وجه تقابلني؟"

"بوجه الخجل.."

"ماذا تأمل؟"

"رحمتك.."

"ماذا تريد؟"

"أنت..."

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملاحظة للقارئ الذي بدأ قراءة الكتاب من النهاية:

«النهاية ستكون جميلة،

وسيأتي ربيع جديد.»